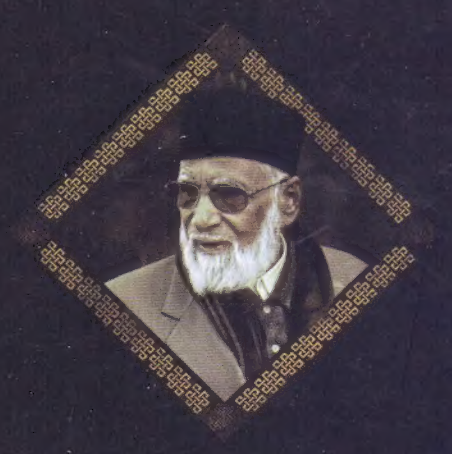
أ. د: عبد العظيم الديب
(رحمه الله)

بضعة أسطر في كتاب التاريخ

دَارْ دَوِّنْ





إن هذا التشويه لتاريخ الإسلام ليس مصادفة، ولم يقع عفواً، وإنما وراءه كيد محكم، وتدبير خبيث، وهو يأتي ضمن خطة كاملة للحرب الصليبية ضد العالم الإسلامي، ترجع هذه الخطة إلى عدة قرون، إلى القرن الثالث عشر الميلادي حينما ارتدت الجيوش الصليبية - بعد أكثر من قرنين من الزمان - مهزومة مدحورة، فقد كان من نتائج هذه الحرب الطويلة ما عبّر عنه المؤرخ (فيليب حتى) قائلاً: ومن النتائج الفرعية التي تخلّفت عن الحملات الصليبية إنشاء الإرساليات المسيحية للتبشير بين المسلمين، فقد اقتنع رجال الفكر (الصليبيون طبعاً) بفشل هذه الحرب، وإخفاق الوسائل العسكرية في معاملة المسلمين.

أ. د: عبد العظيم الديب
(رحمه الله)

تصميم الغلاف/عبد الرحمن الصواف





بضعة أسطر في كتاب التاريخ

الطبعه الأولى أبريل ٢٠١٢
رقم الإيداع: ٧٥٠٣ / ٢٠١٢
I.S.B.N: 978 – 977 – 6337 – 85 – 5
غلاف: عبد الرحمن الصواف
تصحيح لغوي: محمود الغنام

١ شارع السعادة
نصوح - الزيتون - القاهرة
تليفون: ٠١١٤٩٢٨٩٢١٤
E-mail info@dardawen.com
http://www.facebook.com/DarDawen
بالتعاون مع موقع دار الكتب الإلكتروني:
www.daralkotob.com

بضعة أسطر في كتاب التاريخ

الدكتور عبد العظيم الديب

اللهم اغفر له وتغمّده برحمتك الواسعة

١٤٣٠/٢٠٠٩



دار دوّن للنشر والتوزيع

الفهرس

(1)
إنهم يعرفون قيمة التاريخ

في سبتمبر عام 1982م تناقلت وكالات الأنبـاء، والصحف، وكل وسائل الإعلام أخبـار أزمة عتيقة بين الصين واليـابان، هدّدت الصين عندها بقطع كل الصلات الاقتصادية، والاتفاقات التعـاونية، والعلاقات الدبلوماسية، بعد أن كانت هذه العلاقـات قد بلغت قمّة المتانة والقوّة بين البلدين!! فما السر وراء هذه الأزمة؟

كان السـبب في هذه الأزمة هو الخلاف حول بضعة أسطر في كتب التاريخ المدرسية: نمى إلى علم الصين أن اليـابان قد غيّرتهـا قبل

بدء العام الدراسي، فما شأن الصين بالكتب المدرسية اليابانية؟

لذلك قصة: ففي أغسطس سنة 1945م ضُربت اليـابان بالقنابل الذّرية الأمريكية، ومُحيت بذلك مدينة "هيروشيما" ومدينة "ناجازاكي" من الوجود، وبذلك انتهت الحرب العالمية الثانية، واستسلمت اليابان، وعندما أحكم الجنرال "مـاك آرثر" قـائد القوات الأمريكية المنتصرة- قبضته على اليابان، كان شُغله الشاغل كيف يجعل، أو كيف يضمن ألّا ينبعث هذا العملاقُ العسكريُّ اليابانيُّ مرّة ثانية؟ ولم يضيِّعْ وقتًا، بل على الفور استقدم فريقًا من خبراء التربية الأمريكان، كان هذا الفريق مكونًا من سبعة وعشرين خبيرًا من عُتـاة التربية في أمريكا، وطلب منهم وضع خطة تربوية، ومنـاهج تعليمية تؤدي إلى تفتيت الشـخصية اليابانية، وتضمن القضـاء على الروح القتالية، وعدم انبعـاث القدرة العسكرية اليابانية مرّة ثانية.

فرض الجنرال "ماك آرثر" على اليابان تغيير كل شيء من تقديس الميكادو، وتقديس الأسـلاف، والدستور... وكتب التـاريخ، بحيث صارت كتب التاريخ التي تُدرّس في المدارس تقول للتلاميذ: إن الجنرال "هيديكي" القائد الياباني وجماعته كانوا ديكتـاتوريين، ومستعمرين، ومجرمين، وهؤلاء هم الذين قـادوا الجيوش اليابانية في الفترة البـازغة

من تاريخ اليابان التي فرضت فيهـا سيطرتهـا على منشوريا وكوريا، واحتلّت فيها ما يقرب من نصف الصين، وفي الحرب العـالمية الثانية انضمّت إلى هتلر، وحطّمت الأسطول الأمريكي في "بيرل هـاربور"، وظلّت تقاتل وحدها نحو ثلاثة أشهر بعد سقوط ألمانيا، ولم تستسلم إلا بعد أن ضُربت بالقنابل الذرية.

فُرِض على اليابان أن تتنكر لهذا التاريخ، وأن تصف قادتها بأبشع الصفات، حتى تُنشِئ أجيالاً تتجرّع هذه المرارة، فتخرج عـاجزة عن القيادة، وعن الجندية معًا، "ويلٌ للمغلوب من الغالب".

وحين بدا لليابان أن ترفع هذه السطور من كُتُبها المدرسية، هاجت الصين وماجت، حتى اضطرّت اليابان إلى الإذعان والرضوخ، وتنصّل من ذلك رئيس الوزراء الياباني "سوزوكي" في مؤتمر صحفي، قـائلاً: إن الأمر كان من مؤلّفي الكتُب، وأرســل مندوبين ونُوّاباً إلى الصين؛ لمعالجة الأزمة.

ولا يعنينا موضوعُ الأزمة وسببُ الخلاف، وإنما يعنينا هنا أن ننتبه إلى أمرين لهما مدلولٌ خطيرٌ:

أوَّلهما: إدراك قيمة التاريخ وأثره في صناعة الأجيال، وتوجُّهات الأمم، وهذا الإدراك واضح تمامًا من الجانبين "اليابان والصين"؛ فاليابان تريد أن تصحّح، أو تغيّر، والصين لا تتهاون، ولا تتساهل، ويقف العملاقان وجهًا لوجه.

والأمر الثاني الذي ننتبه له: هو رهافة الحسّ وشدّة الانتباه من كل من الدولتين أيضًا، وبخاصة من الصين، فكيف شعرت حكومة الصين بأن اليابان -وهي تستعدُّ للعام الدراسي الجديد- غيَّرت هذه السطور؟؟ كيف شعرت الصين بذلك؟؟ فالكتب لم تكن خرجت من المطابع بعدُ؟؟ هل جعلت الصين من مهمة مخابراتها مراقبة الكتب المدرسية؟ إن المخابرات عادة مهمَّتها مراقبة الأسلحة والجيوش والمفاعلات الذرية، والصناعات الاستراتيجية، والاستعدادات الحربية... فهل أضافت الصين إليها مراقبة الكتب المدرسية؟

أخال ذلك قد حصل، والمخابرات في ذلك لم تخرج عن وظيفتها ومهمَّتها؛ فهي ما زالت مخابرات عسكرية، تراقب قوّة العدو وقدرته القتالية، فهذه الكتب المدرسية هي التي تصنع الرجال، وتصوغ الإنسان، الذي هو المحرّك الأول، والفاعل الحقيقي في كل معركة، فبدونه لن تكون هناك جدوى لأي سلاح مهما بلغت قوته وكفاءته،

ولا ننسى أيضًا يقظة اليابان التي لم تنسَ، ولم تنَمْ؛ فهي على إدراكٍ واعٍ بأن هناك سطورًا يجب أن تُغيَّر، قد فُرِضت عليها فرضًا، وأرادت أن تنتهز فرصة العلاقات الطيبة التي بدأت تربطها بالعدوِّ القديم، لعلَّه يتغاضى، أو يكون قد نَسِي، ولكن كان ما كان.

هذه قيمة التاريخ!

وفي كتب التاريخ في عامَّة الدول الإفريقية تجدُ الحديث عن تجَّار الرقيق العرب، وأسواق النخاسة التي تصدِّر العبيدَ إلى الدول العربية، وقد لا تجد سطرًا واحدًا عن استرقاق الأوروبيين للأحرار الأفارقة، واصطيادهم من مُدُنهم وقُرَاهم باستخدام أخسِّ أساليب الخداع والمكر، وتصديرهم إلى أمريكا بأبشع وسائل القسوة والامتهان،

فهل تنبَّه أحد منا لذلك؟ أم إن الأمر لا يعنينا؟!

(2)
سلطان العاطفة

لا أحد ينكر سلطان العاطفة -أية عاطفة كانت- على الإنسان، فأنت تستطيع أن تحاور صاحب فكرة حول فكرته، أو تجادل صاحب رأي حول رأيه، وقد تنجح -إذا أحسنت تقديم الأدلة والبراهين- أن تصرف صاحب الفكرة عن فكرته، أو صاحب الرأي عن رأيه.

أما صاحب العاطفة فهيهاتَ هيهاتَ، لن تستطيع أن تحوّل من يحبّ أو يكره، عن حُبّ ما يحبه، أو كراهية ما يكرهه، أو تحوّل من يزدري ويحتقر إلى احترام وتقدير ما يزدريه أو يحتقره!

وسبب ذلك أن العاطفة غيرُ الرأيِ والفكرِ، فالعاطفة تتكوَّن

بهدوء، وعلى مدى طويل، فـالعـاطفة أمر معقّد مركّب؛ ذلك أنهـا تبدأ بالإدراك والشعور والميل والنزوع، ثم ترتقي حتى تصبح عـاطفة تنشب في القلوب، وتصبح محلّ حماية ورعـاية، ويصعب منـاقشة صواب موضوعها أو خطئه، وتصبحُ بديهية من البدهيّـات، ومسلَّمة من المسلّمات.

ومن ثم تصبحُ هذه العاطفة هي الموجِّه لتصرُّفات صاحبها، والدافع له نحو كل ما يُشبعها ويستجيب لها، وبالتالي النفور والمقـاومة لكل ما يضادُّها أو يخالفها، وأصدق ما يصوِّر ذلك ما رُوِي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حُبُّكَ الشيء يُعمي ويصمُّ" [رواه أبو داود في سننه، وسكت عنه، وقال الحافظ العراقي: يكفينا سكوت أبي داود].

وأحبُّ أن أؤكد هنا أن العـاطفة ليست بالضرورة نقيضًـا للعقل؛ فالعاطفة لا تُبنَى، ولا تنمو، ولا تنشأ إلا عن مجموعة من الخبرات، والإدراكات، والأفـكار، والآراء، فإذا صحَّت هذه الأفكار، وصدقت هذه الآراء، نشـأت عنهـا عـاطفة سـليمة قويمة، تدفع إلى الطريق الصحيح، والموقف الصائب.

- فإذا صحَّ عندك هذا، وأدركت مدى سلطان العاطفة، فاعلم أن دراستنا للتاريخ الإسلامي المُبْتَسرة الممزَّقة، قدَّمت لنا معلوماتٍ منقوصةً، وأخبارًا مبتورة، وأحداثًا مختلقة، وساندتها

وسائل الإعلام المختلفة بالأفلام والمسلسلات والمقالات، وبالتكرار واللجاجة، والإلحاح... نشأ من ذلك كله صورة شوهاء عن تاريخنا الإسلامي، استقرَّت في أذهان مثقفينا عامَّة، وعنها نشأت عاطفةُ نفور، بل ازدراء وكراهية للتاريخ الإسلامي في مجمله، وخرجت قضية تصحيح التاريخ الإسلامي من مرحلة تصويب أفكار وتصحيح معلومات إلى تعديل عواطف وتصحيح ميول واتجاهات، وهيهاتَ هيهاتَ.

- ولكي تدرك صحَّة ما أقول حاول في مجلسٍ من مجالس المثقفين، أهلِ الفكر والنظر، ولْيكونوا من الإسلاميين: العلماء والدعاة والمنظِّرين... حاول في مجلسٍ أن تذكر تشويه التاريخ الإسلامي، وأن تتحدث عن وجهه المضيء، وإنجازات بني أمية، وحضارة بني العباس، وعدْل معاوية، وفقْه عبد الملك بن مروان، وورَع الرشيد، وعِلْم المأمون، وجهادِ المماليك، وفتوحات الأتراك.... إلخ.

إنك إن فعلت ذلك ستجدهم يستقبلون حديثك بفتور، ولا يكادون يطيقونه، ويتململون، مما يجعلك مضطرًا إلى إيجاز كلامك والإمساك عنه.

ثم إذا سكتَّ وأمسكت، ستجد من ينبري لك مادًّا قامته رافعًا

هامته، يُحدِّثك عن "الموضوعية" في كتابة التاريخ، و"الأخطاء" و"السلبيات" وضرورة ذكرها "للعظة" و"الاعتبار"، وعن "المآسي" و"الظلمات" في تاريخنا... ولا تهدأ "مشاعره" حتى يذكر من وقائع هذا التاريخ ما تقشعرُّ منه الأبدان!

ثم لا ينسى أن يغمزك، ويسفِّه حديثك، فيتكلَّم عن "السذاجة" في محاولة كتابة التاريخ الإسلامي على أنه كله "إيجابيات" وننسى "السلبيات".

- ثم حاوِلْ مرة ثانية -في هذا المجلس نفسه- أن تستفتح حديثًا عن المستشرقين، وتكلَّم عن أفاعيلهم في خدمة الاستعمار والتبشير، وعن أثرهم في تخريب ثقافة الأمة، وتدمير جهاز تفكيرها، وأن منهم من كان يحمل رُتَبًا عسكرية في الجيوش التي حطَّمت الخلافة، وكان من قادة الفريق الذي دخل القدس عام 1917م وهو يقدِّم بين يديه صُفُوفًا من الكرادلة، ورجال الإكليروس، يتلون صَلَوَاتِهم، وأهازيجَهم؛ احتفالاً بتحقيق الغاية من الحروب الصليبية وسقوط القدس.
- ثم انظر وانتبه لمشاعر هؤلاء "العلماء والدعاة والمنظِّرين" وهم يسمعون منك هذا الكلام عن المستشرقين، وقارن بينها وبين مشاعرهم عندما كنت تتكلم عن إشراقات التاريخ الإسلامي.

سنجدهم أيضًا يتململون، وقد لا يطيقون استمرارك في الحديث، بل سيقاطعك قائلهم: "لا نريد أن نكون متحيّزين"، وآخر يكمل: "ولا يجرِمَنّكم شنَآنُ قَوْمٍ على ألا تَعْدِلُوا" ثم يتسابقون إلى الحديث عن خدمات المستشرقين للقرآن، وعن تحقيقهم لهذا الكتاب أو ذاك، وعن "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث"، وعن "منهجيتهم" و"موضوعيتهم"... إلخ.

وستجد من يصفك بـ"الحدّة" وآخر "بالعنف" وآخر يسوقها لك في صورة دعابة: "يا أخي أنت متطرف"، والفرق بين الموقفين هو "العاطفة"؛ فالذين لم يتحمّلوا التقدير والثناء على تاريخنا ورجاله هم بأعينهم الذين لم يطيقوا إدانة المستشرقين، وكشف جرائمهم، ووراء ذلك في الحالتين كانت "العاطفة".

***

هذه صورة لمواقف "حقيقية" وقعت فعلاً، وآخرها حدث منذ عدة أسابيع، عندما جمعتنا جلسة ضيّقة هادئة، ضمّت عددًا ممن يعملون بالدعوة، ويعيشون لها، وكان من بينهم بعض قادة الفكر والتنظير، وجرى الحديث -بالطبع- حول هموم الأمّة ومآسيها، وعن التيارات الفكرية التي تتجاذبها، وكان لا بد أن ننعطف نحو التاريخ،

فالأمم الواعية تُهرَع إلى تاريخها تستلهم منه العظـات والعِبَر. فكان مما قلتُ: إننا ظلمنا تاريخنا ظلمًـا بيّنًا، وقرأناه على غير وجهه، فـالأتراك العثمانيون الذين شهد لهم المؤرِّخون الغربيون بالعدل والتسامح، نشأنا نحن على تبشيع أمرهم، ووصفهم بالجهل والظلم، وأنَّهم جـاءوا بلادنا العربية غُزَاة قُسَـاة، ومستعمرين طُغَـاة. ضربوا علينـا أسوار الجهل والتخلُّف حتى استيقظنا على طلقات مدافع نابليون.

مع أن القراءة الصحيحة لتاريخنا تؤكد أنهم ما جاءوا إلى مصر والشام والجزيرة إلا لحماية البحر الأحمر من هجمات البرتغاليين التي تكرَّرت على جدَّة بقصد الاسـتيلاء على الحرمين الشريفين، ثم تطرّقتُ إلى نُتف سريعة موجزة عن مواقف بعض الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- في الفتنة فُهمت على غير وجهها.

وكما توقعتُ، وجدتُ التململ، وعدم الإقبال، بل والنفور. فأمسكتُ عن الحديث، وهنا انبرى أخ كريم وأستاذ جليل قائلًا في حدّة ظاهرة: لا بدّ من ذكر الأخطـاء والمآسي في التـاريخ الإسلامي. ولا بد عند كتابة التاريخ من ذكر "السلبيات" وعدم الاكتفاء "بالإيجابيات".

فقلتُ: إننا أبدًا لا يمكن أن نتخلى عن المنهج العلمي الصـارم بكل ضوابطه عند كتـابة التاريخ، ولكن الأسـتـاذ الجليـل ظلّ في حدته

بل غضبه يكرّر: لا بد من ذكر الأخطاء والسلبيـات -ولم يكفِه قولي بالالتزام بالمنهج العلمي- ثم أردف قائلاً: "يعني الأتراك اللّي بتتكلّم عنهم دُول كان الواحد منهم عندما يتولّى الخلافة يقتل كل إخوته"... قـالها هكذا باللهجة، ثم ظهر عليه الارتياح، وكأنه اشـتفى من الأتراك الذين لم يُطِقْ أن يُذكروا أمامه بخير!

وأنبّه هنا إلى أمور:

1. إن حديثه هذا لقِيَ قبولاً وارتياحًا لدى صحيح الحاضرين "وإن يكن بدرجات متفاوتة".
2. أنني لم أقل أبدًا: إننا لا نذكر الأخطاء، فكيف فُهِم من كلامي أننا لا نذكر الأخطاء؟؟
3. إن بناء عبارته وألفاظها "الأتراك اللّي بتتكلّم عنهم دول" هذا البناء يدل دلالة واضحة على مخزون البغض والكراهية والازدراء للأتراك.
4. أؤكد أن الأستاذ الجليل صاحب هذا الموقف ليس وحده، بل هو مثال لكل علماء الإسلام ودعاته "إلا القليل النادر".

5ـ وآخر ما أنبّه إليه: أنني لا أحكي هكذا ثالبًا أو عائبًا، فصاحب هذا الموقف أخٌ كريم، وعالم جليل، له جهاده وجهوده، وهو نموذج لأساتذة كبار، أصحاب فضل، تعلمنا منهم وتتلمذنا على أيديهم.

ثم إنــني -أبدًا- لا ألوم علماءنا وأئمّتنــا، فعــذرهم بيِّن واضح؛ فهم لم يعرفــوا من تاريخ أمّتهم إلا تلك المِزَق التي تلقّوهــا في التعليم العــام، وعلى المناهج التي صيغت بأيدٍ خبيثة مــاكرة، صاغهــا "دنلوب"، ولم يدرس علماؤنا وقــادة الرأي فينا إلا مــا قدَّمته لهم هذه المنــاهج، التي شكلت وجدانهم، وصاغت عاطفتهم، ثم كبر الواحد منهم وصار علمًــا مــن الأعلام في فنّه الذي تخصَّص فيه، وأصبح رمزًا من رموز الفكر، وواحدًا من النخبة التي تقود الأمّة وتوجّهها، ولم تُتَحْ له فرصة لمراجعة وتصحيح ما تعلمه، وما استقرّ في ذهنه من صورة مشوَّهة عن تاريخ أمّته، وأحكام خــاطئة صارت بدهيات غير قــابــلة للنقاش، ولا هو بمستطيع أن يعيد القراءة والمراجعة لهذه الأمور التي بعُدت عن مجــال تخصصه، ولا هو نفسيًــا -من حيث الســنّ- يقبل أن يعيد التكوين والتعديل لاتّجاهاته، ومشاعره، وعواطفه.

أرأيت؟ إنهــا بضعة أسطر في كتــاب التــاريخ، صنعت كل هذا الخلل، والله وحده المستعان.

(3)
لماذا تاريخ الإسلام وحده؟؟

لماذا تاريخ الإسلام وحده هو الذي درسناه مشوَّهًا ممزَّقًا؟ لماذا تاريخ الإسلام وحده هو الذي صفعناه، وجلدناه، وسحلناه؟ لماذا تاريخ الإسلام وحده هو الذي يُعقِب نفورًا وازدراء وبُغضًا في نفوس دارسيه؟

وإن كنت في شكٍّ من هذا فاختبر نفسك، واختبر من حولك، حاوِل أن تذكر كلمة "التاريخ الإسلامي"، وانظر إلى ما تثيره في النفوس، وراقب ما يسميه علماء النفس "تداعي المعاني"، أية معانٍ

ستتوارد على الخواطر؟! وأية صور ستحضر في الأذهان؟! وأية مشاعر ستتحرَّك في الوجدان؟! إن أقل ما ستتحرَّك به النفوس هو التحفّز للنقد، والمحاسبة، والمناقشة، وإحصاء الأخطاء، وسيصل الأمر بالبعض إلى الازدراء والاحتقار، والبُغض، ولقد عمَّ ذلك وطمَّ، لم يسلم منه أحد حتى علماء الأمة، ودعاة الإسلام إلا من رحم ربك وقليل ما هم.

ذلك أنك إذا ذكرت التاريخ الإسلامي، فأسرَعُ ما يقفز إلى الذهن:

- ما نحفظه من اتهامات لعثمان بنِ عفان -رضي الله عنه- بأنه كان يولّي أقاربه إمارة الأقاليم، ويحكّمهم في رقاب العباد، ويُطلق أيديهم في مال الأمّة، ولمّا ثار الصحابي الجليل أبو ذرٍّ على هذه السياسة غَضِب عليه عثمان، ونفاه إلى الربذة.
- ثم حصار الثوار لعثمان، وقتلِهم له وهو يتلو في المصحف.
- وما صار يُضرب به المثل من نصْبِ معاويةَ لقميصِ عثمان الملطّخ بالدماء في المسجد، واحتياله بذلك حتى لا يبايع عليًا -رضي الله عنه- ومن أجل الملك العضوض أشعل حربًا ظالمة على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، فكانت معركتا "الجمل" و"صفين".

- ثم مسرحية التحكيم الهزلية، وما تجلّى فيها من منتهى الغفلة والبلاهة، في مقابلة منتهى النصب والاحتيال.
- وقُضي الأمر باستيلاء معاويةَ على الحكم، وتحويل الخلافة الراشدة إلى قيصرية هِرَقْلية، أخذ فيها معاوية البيعة لابنه يزيد قهرًا تحت تهديد السلاح.
- صورة يزيد بخَمْرِيَّاته وفسقه، ولهوه ولعبه بقروده وكلابه، وسنواته الثلاث السود التي قتل فيها الحسينَ، وغزا المدينة المنورة، وأباحها لجنوده، وهَدَمَ الكعبة.
- ثم يأتي الحجَّاج، وجبروته وظلمه، وقتله ابنَ الزبير، وضَرْبِه الكعبة بالمنجنيق.
- ويحاول عمر بن عبد العزيز تصحيحَ الأوضاع، فيموت مسمومًا.
- ثم تدور الدائرة على بني أمية، وتسقط دولتهم؛ بسبب ظلمهم وفسادهم، وعنصريتهم المتعصِّبة للعرب.
- وأما العباسيون، فأولهم الذي استفتح دولتهم أبو العباس السفَّاح، ومن أبرز ما نذكره عنهم ضَرْب الأئمَّة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وخمريات الرشيد، وسَرَفه، وعَبَثه، ونُوَاسِيَّاته، ثم محنة الفقهاء وأهل الحديث في عصر

المأمون، ثم سيطرة الفرس على الدولة -لأنهم هم الذين صنعوها- ولعبهم بالخلفاء، حتى جاء التتار، وكان ما كان، وسقطت الخلافة.

- ثم جاء عصر المماليك، جَمَلة يملكون سيفًا قويًا يستخدمونه حينًا ضد العدو دفاعًا عن الإسلام، وأحيانًا ضد بعضهم بعضا، ودائمًا ضد الشعب.
- ثم جاء العثمانيون، فكان الجهلُ والظلامُ، والقضاءُ على الحضارة والصنائع والفنون، وإذلال العنصر العربي بالعجرفة التركية التي ما برحت مضرب الأمثال.
- أما الأندلس، فقد غرق ملوكها في التَّرَف، ودارت برؤوسهم الكأس والطاس، فقاتل بعضهم بعضًا، بل تحالف بعضهم مع الصليبيين ضد إخوانهم، فكانت النهاية المأساوية التي انتهت بإبادة المسلمين وخروج الإسلام من الأندلس.

* * *

هذه معالم تاريخ الإسلام التي استقرَّت في بؤرة شعور مثقَّفينا عامة، ولا أستثني منهم علماء الإسلام ودعاته (إلا النادر، والنادر لا حكم له).

قد يقول قائل: وأين ما يتعلَّمه أبناؤنا عن انتصارات المسلمين وفتوحاتهم، وحضارتهم وأمجادهم؟؟

وأقول: نعم يوجد شيء من هذا، ولكنه يُعرَض بصورة باهتة ممزقة، ولذلك تتوارى في حنايا الذاكرة، وتتخلى عن بؤرة الشعور، وتبقى الصورة البشعة التي عرضتها لك آنفًا هي الحاضرة في الذهن.. "online" كما يقولون!

وعندي على ذلك ألف دليل ودليل، ولا شكَّ أنك سمعت ذلك الإعلامي الناجح وهو يقول في ثنايا حوارٍ له مع أحد ضيوفه: "كل الخلفاء الراشدين قُتِلوا إلا واحدًا"، وزميله الذي لم يُطِق صبرًا على مُحاوره -وهو يتحدث عن عمر بن عبد العزيز وإصلاحاته- فيقول له في لهجة ساخرة: "ولذلك قتلوه".

- وقبل أن أترك الكلام عن هذه الصورة البشعة للتاريخ الإسلامي أؤكد أنها صورة كاذبة خاطئة، تقوم على معلومات أكثرها مكذوبٌ لا أصلَ له، وباقيها بين ثلاث حالات:

1- أحداث ضُخِّمت وبولغ فيها حتى أخذت أكثر من حجمها حتى حَجَبت الكثير.

2ـ أحداث أُسيء فهمها وتفسيرها، ولو فُهِمَت على حقيقتها ووجهها لكانت فخرًا لصانعيها.

3ـ أحداث تدخل في إطار العجز البشري عن الكمال "كل بني آدم خطاؤون".

ونعود للسؤال: لماذا تاريخ الإسلام وحده؟

لقد درس أبناؤنا ومثقفونا، ودرسنا أيضًا تاريخ أمم الأرض قديمها وحديثها، فما تركت أية دراسة منها هذه الصورة، لا للفراعنة، ولا للآشوريين، ولا للبابليين، ولا للفينقيين، ولا لليونانيين، ولا الأوروبيين والأمريكيين.

أبدًا لا يشعر أحد تجاه هذه العصور التاريخية وتاريخ أهلها بما يشعر به تجاه التاريخ الإسلامي.

- فإذا ذكرنا الفراعنة تجد شعورًا بالاعتزاز، بل الفخر والمباهاة، وتقفز إلى ذهنك صورة الحضارة التي أضاءت الدنيا منذ فجر التاريخ، وبهرت العالم بما خلّفته من آثار، وما أظنّ المشاعر نحوها تصل إلى درجة الحياد.

- فإذا ذُكِر تاريخ اليونان، فهنا شعور الإكبار والاحترام، وعلى الفور يقفز إلى الذهن سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وما حولهم من هالات التمجيد والتعظيم.
- وبالمثل تاريخ الرومان، وكل أمم الأرض.
- فإذا جئنا إلى تاريخ أوروبا، بعد عصر النهضة، فسنجد الإعجاب والإكبار يصل إلى حد الانبهار والاندحار، والاستخزاء والشعور بالهوان، حتى صرنا نلهث وراءهم، ونقيس تقدّمنا منهم، والمسافة التي نقطعها في محاولة اللحاق بهم.

وإن كنت تظن بي المبالغة، فانظر حولك، واقرأ واسمع معي الأسماء الآتية:

صحيفة "الأهرام"، وصحيفة "بابل"، ووكالة الأنباء "سبأ"، ومهرجان "جرش"، ومهرجان "قرطاج"، ومهرجان "بعلبك"، وفندق "فلادلفيا"، وشارع "رمسيس"، والحديث عن "دلمون"، و... و... هذا ما يحضرني عَفْوَ الخاطر، ولو تأمّلت وتتبّعت، لرأيتَ الإصرار على تجلية تاريخ هذه الجاهليات والوثنيات أمرًا يُراد، حتى سمعتُ بأذني مَنْ يتحدث عن التجربة الديمقراطية في بلاده، ثم يختم كلامه: "ولِمَ لا؟ ألسنا أحفاد ملكة سبأ"، هكذا على الملء من مشاهدي الفضائية البارعة.

- وسمعت آخر يقول مباهيًا: "نحن أحفاد رماة الحدق"؛ (ورماة الحدق هؤلاء هم أهل النوبة الذين تصدّوا لجيش الفتح الإسلامي، وحالوا بينه وبين فتح الجنوب، وسماهم المسلمون "رماة الحدق"؛ لبراعتهم في الرمي، ودقة إصابتهم)، هؤلاء يباهي مثقّف مسلم معاصر بأنه من أحفادهم!
- أما صيحة "إحنا الفراعنة"، فما أكثر ما تسمعها عند إصابتهم مرمى الخصم في كرة القَدم.

وانظر حولك وتأمّل ستجد من هذا ضروبا وأفانين.

فلماذا تاريخ الإسلام وحده؟

إنها بضعة أسطر كاذبة خاطئة في كتاب التاريخ وراء كل هذا.

(4)
هذه هي القضية

إن هذا التشويه لتاريخ الإسلام ليس مصادفة، ولم يقع عفوًا، وإنما وراءه كيـد محكم، وتدبير خبيث، وهو يأتي ضمن خطة كاملة للحرب الصليبية ضد العالم الإسـلامي، ترجع هذه الخطة إلى عدة قرون، إلى القرن الثالث عشر الميلادي، حينما ارتدَّت الجيوش الصليبية -بعد أكثر من قرنين من الزمـان- مهزومة مدحورة، فقد كان من نتـائج هـذه الحرب الطويلة ما عبّر عنه المؤرخ "فيليب حتى" قـائلا: ومن النتائج الفرعية التي تخلّفت عن الحملات الصليبية إنشـاء الإرساليات المسيحية للتبشـير بين المسلمين، فقد اقتنع رجال الفكر (الصليبيون

طبعًا) بفشل هذه الحرب، وإخفـاق الوسائل العسكرية في معـاملة المسلمين.

وكان الكاهن القطلاني "ريمون لول" أول أوروبي نبّه وشـّدد على أهمية الدراسات الشرقية؛ كأداة فعّالة لنضالٍ سلمي، يعتمد على الإقناع بدلا من الإكراه.

وبتأثير "ريمون" هذا جرى الروح الصليبي في مجرى جديد، هو إقناع المسلمين بالمسيحية بدلا من إبادتهم.

أمّا الإرسالية الكرملية (نسبة إلى جبل الكرمل) التي لا تزال عاملة في سوريا، فقد أسسها أحد الصليبيين عام 1157م، ثم أنشِئت اثنتان من الإرساليات الرهبانية هما "الفرنسيسكان" و"الدومينكان"، وصار لكل منهما فروع مختلفة في لبنان، وكتب أسقف دومينكاني رسالة من أوفى رسائل العصور الوسطى بشئون المسلمين، موصيًـا باستخدام المرسلين (المبشرين) بدلاً من الجنود؛ لاستعادة الأرض المقدسة. أ.هـ بنصّ حروفه.

هكذا بكل وضوح تعطينا هذه الوثيقة الحقائق الآتية:

1. اعترافهم بفشل الحروب الصليبية.
2. أنهم تيقّنوا من عجزهم عن هزيمة المسلمين بالوسائل العسكرية.

3. أنهم عَدَلوا إلى أسلوبٍ جديد هو المرسلون المبشرون.

4. أن هذه المؤسسات الدينية (الأديرة، والإرساليات، وما تبعها من مدارس وكليات) هي لاستعادة الأرض المقدسة؛ أي لهزيمة المسلمين، والسيطرة على دار الإسلام.

5. أن سيطرة خريجي هذه المؤسسات التبشيرية على منابع الثقافة والفكر في أهم العواصم العربية كان أمرًا مخططًا مدبرًا، فلم يكن أمرًا عفوياً أن يقبض على زمام الثقافة والفكر أمثال: بشارة تقلا، وجبرائيل تقلا، وسليم تقلا، وداود بركات، وفارس نمر، وشبلي شميل، وأمين شميل، وإدجار جلاد، وأنطون الجميل، وشاهين مكاريوس، ولويس شيخو، وجورجي زيدان، وشكري زيدان، وإميل زيدان، وإميل الخوري... هؤلاء وغيرهم كثير لا يحُصَون عددًا، خرجوا من محاضن "ريمون لول" وتلاميذه، وانتشروا في بغداد، ودمشق، والقاهرة، وظاهَرتهم جهاتٌ كثُر، بعضها منظور، وبعضها من وراء ستار، ويحتاج أمر هذه الظاهرة وقياس حجم خطرها وإفسادها إلى أطروحة، بل أكثر من أطروحة، فهل نرى من ينهض إلى ذلك؟

- ولم تكن هذه المراكز وحدها التي تحقِّق استراتيجية "ريمون لول"، بل كانت هذه الاستراتيجية واضحة المعالم بينة القسمات أمام كل من يعمل للمشروع الاستعماري الغربي، فها هو "نابليون" وهو أول من جازف بمحاولة الهجوم على ديار الإسلام منذ الحرب الصليبية، لم ينسَ أن يقدِّم بين يديه كتيبة من المستشرقين، ولم ينسَ وهو يستخدم أبشع وسائل القتل والحرق والتدمير، لم ينسَ أبدًا الاستراتيجية الأساس، فكتب إلى نائبه "كليبر" بعد أن غادر مصر إلى فرنسا، كتب إليه يقول:

"ستظهر السفن الحربية بلا ريب في هذا الشتاء أمام الإسكندرية، أو البرلُّس أو دمياط، يجب أن تبني برجًا في البرلّس، اجتهد في جمع خمسمائة شخص، أو ستمائة شخص من المماليك، حتى إذا لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم في القاهرة أو الأرياف، وتسفِّرهم إلى فرنسا، وإذا لم تجد عددًا كافيًا من المماليك، فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا، يحُجَزون مدة سنة أو سنتين، يشاهدون في أثنائها عظمة الأمّة الفرنسية، ويعتادون على تقاليدنا ولغَتنا، ولما يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزبٌ يُضَم إليه غيرهم". أ.هـ

هذه الرسالة محفوظة في نصّها الأصلي ضمن وثائق وزارة الحرب الفرنسية تحت رقم 4374، وهي تؤكد ما يأتي:

1. الحرص المبكر على نشر "التقاليد الغربية"، و"اللغة الغربية" أي الثقافة الغربية، والوعي بأن ذلك مفتاحٌ لتوجيه هؤلاء المتغرّبين، وأنهم سيكونون بمجرد الوقوع في براثن هذه الثقافة حزبَ فرنسا، "يكون لنا منهم حزب".. تذكر ما نسمعه هذه الأيام في ثنايا أخبار الجزائر عن "حزب فرنسا".
2. الحرص على أن يكون هؤلاء الرّواد الأوائل من ذوي المكانة والوجاهة في المجتمع؛ إذ طلب نابليون أن يكونوا من أبناء الطبقة الحاكمة "المماليك ومشايخ البلدان"، وذلك حتى يكونوا محلَّ قدوة يقتفي الناس آثارهم ويقلّدونهم، ولا يقتصر الأمر على أشخاصهم.

وهذا المعنى عبَّر عنه أحد دُهاتهم وهو يتحدث عن مدى نجاح مشروعاتهم التبشيرية الاستعمارية، فقد ذكر -مباهيًا- أن مدارسهم، وبخاصة مدارس البنات تضمُّ أبناء الطبقة العليا في المجتمع، أبناء الحكام والأثرياء، وهم الذين يُسمع لقولهم، ويُطاع أمرهم، ويُقتَدى بهم.

3. وهذا الذي قاله "نابليون" بإيجاز مقتضب عبّر عنه بعد

أكثر من قرن ونصف القرن الفيلسوف الفرنسي "سارتر" بوضوح وتفصيل؛ حيث قال: "كنا نأخذ النوابغ من أبناء آسيا وإفريقيا، ونأتي بهم إلى بلادنا، ونطوف بهم عواصمنا؛ حتى يعتادوا عاداتنا، ويتثقفوا بثقافتنا، ونُلقي في أفواههم جملاً ضخمة تلتصق بأسنانهم، فلا يتكلمون إلا بها، ثم نردّهم إلى بلادهم، فيتكلمون بدلا عنا، والأهم من ذلك أنهم يمنعون غيرهم من الكلام".

- ورغم أن مشروع "نابليون" قد سقط بهزيمة حملته العسكرية، إلا أنه أتيح له أن يجد من يحققه نيابة عنه، وهو "محمد علي" الذي تولى حُكم مصر بعد خروج الفرنسيين، ذلك أن "محمد علي" تبنىَّ المشروع الغربي بالكامل، وحقق لفرنسا كلّ ما كانت تريده، ولا يتبادر إلى ذهن أحد أنني أتهّم "محمد علي" بالعمالة أو الخيانة، فأنا لا أُحبُّ هذه التجاوزات، ولكن الرجل وجد نفسه على مفترق طرق، وأنه لا بد من نهضة وتغيير، فكان أمامه التغيير والتجديد من الداخل، من داخل المجتمع وثقافته ومؤسساته القائمة فعلاً، وقد كانت قادرة على ذلك، وكان أمامه في نفس الوقت التغيير على الخط

الغربي المستورد، يزيّنه له قناصل الدول الأوربية، فاستمع لوكلاء المشروع الغربي، ورفض الاستماع لعلماء الأزهر، ولقادة الفكر في الأمّة، وعمل على تنحيتهم وتهميشهم، بل نفى بعضهم، وسجن بعضهم، واتخذ مستشاريه ومعاونيه من الفرنسيين، ومن يدور في فلكهم، كان ذلك اجتهادًا خاطئًا منه -ولا أقول تآمرًا أو عمالة- ولعله اقتدى فيه بآخرين سبقوه في العالم الإسلامي، (ولذلك حديث آخر يطول).

أسّس "محمد علي" قياده لهؤلاء، فكان مشروعه النهوضي فرنسيًا تغريبيًا في لُحمَته وسُداه، وحتى لا نلقي الكلام على عواهنه بغير دليل، نشير إلى المظاهر الآتية التي تشهد بما نقول:

أ- كان ديوان المدارس الذي أنشأه "محمد علي" سنة 1837م، وهو بمثابة إدارة للمدارس العليا والخصوصية (أي المتخصصة) كان الإشراف على هذا الديوان لمجلسٍ يتكون من:

1- كلوت بك.

2- كياني بك.

3- أرتين بك.

4- أسطفان بك.

5- حسكلتيان.

6- فارين بك.

7- لامبيير بك.

8- هامون بك.

9- دوزول بك.

10- مصطفى مختار بك.

11- رفاعة رافع.

12- محمد بيومي.

وكما ترى كلهم غربيون فرنسيون إما لحمًا ودمًا، وإما ثقافة وهوى، كالثلاثة الأواخر.

ب- كذلك كان توجيه طلاب البعثات إلى فرنسا، حيث كان تأثير التغريب فيهم أشد، كما اعترف بذلك "سارتر" فيما نقلناه من كلامه آنفًا، وقد بلغ عدد هؤلاء 319 مبعوثًا كان من بينهم أربعة من بيت "محمد علي": اثنان من أبنائه، واثنان من أحفاده، أحدهما إسماعيل بن إبراهيم الذي صار حاكمًا لمصر، وأعلن يومها أن مصر قطعة من أوروبا "وكان من أمره ما كان".

ج - كان المشرف على هذه البعثـات في فرنسا "مسيو جومـار" أستاذ "رفاعة الطهطاوي"، وقد قال عنه "رفاعة الطهطاوي": "وشهرة "مسيو جومار" وحُسن تدبيره يُوقع في نفس الإنسان من أول وهلة تفضيل القلم على السيف؛ لأنه يدبِّر بقلمه مـا لا يدبَّر بالسيف ألف مرة، ولا عجبَ فبالأقلام تُساس الدول".

فهل يا تُرى كان شيخنـا رفـاعة يشير إلى نشـاطه الاستعماري التبشيري؟ أم إلى جهوده في المخابرات الفرنسية؟ أم إلى خطورة أثره في صياغة عقول واتجـاهات وميول وعواطف طلاب البعثـات؟ ما الذي كان يحركه "جومار" بقلمه؟ تأمَّل!

د- بـل نستطيع أن نقول: إن النفوذ الفرنسي في مصر بلغ درجة لم يبلغها أيام الحملة على مصر، يكفي مثالاً على ذلك أنه عند الاحتفـال بوضع حجر الأسـاس للقناطر الخيرية سنة 1847م تصايح الفرنسيون: "نـشرب نخب محمد علي ونابليون"، وتعمَّدوا فيما ألقوه من كلمات أن يذكروا بفضل أيادي حكومتهم البيضاء على محمد علي.

- وكأن الفرنسيين أُخرجوا مهزومين عسكرياً، فأعادهم "محمد علي" مسيطرين وموجِّهين ثقافيًا وتربوياً، بل وسياسيًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والذي يعنينـــا من كل ذلك هو أثر هذه السيطرة في الثقــافة والتعليم، الذي عبرّت عنه المؤرخة الإنجليزية "هيلين ريفليلين" بقولها: "إن التفكيك الثقافي المترتب على سيــاسة محمد علي التربوية المبتورة أمرٌ يستحيل تقديره، ولكن آثاره ما زالت محسوســة في مصر حتى اليوم دون جدال". (مجلة الفكر العربي عدد 32 صـ 46).

وفي دورة أخرى من دورات التاريخ والأحداث انتقلت السيطرة إلى الإنجليز، ذلك أن الصراع كان دائرًا لا يهدأ بين انجلترا وفرنسا على اقتسام العالم العربي والإسلامي، كان التســابق بينهما لا يهدأ، ومعلوم مشــهور أن الأسطول الإنجليزي حــاول أن يسبق أسطول نابليون ويحــول بينه وبين احتلال مصر، فلما سبقه نابليون، ونزل إلى مصر، ظلّ الأسطولُ الإنجليزي يتحينَّ الفرصة حتى انقضَّ على الأسطول الفرنسي في خليج "أبو قير"، وحطّمه في تلك الموقعة المشهورة، ثم لمــا فشلت الحملة الفرنسية العسكرية على مصر وخرجت منهــا سنة 1801م، جاءت انجلترا بحملتها المعروفة بحملة "فريزر" سنة 1807م، ولّما كان الشعب لم يدجَّن بعد، فقد رُدّت الحملة على أعقابهــا، مهزومة مدحورة.

وظلــت انجلترا على حــالها، لم تنمْ عن هدفهــا في احتلال مصر،

فتدسّست عن طريق القروض، والرشاوى، حتى حصلت على موطئ قدم، وأخذت تعمل بدأب حتى تمكنت من تحقيق مأربها، واحتلت مصر سنة 1882م أي بعد هزيمتها بخمس وسبعين سنة، ولما سقطت مصر سألت انجلترا رجلها الأول عمّا يلزمه لإحكام السيطرة على البلاد؟ فأجاب "كرومر": إنيّ قادم بنفسي إلى لندن لهذا الشأن، وهناك لم يطلب من قيادته لا مزيدًا من السلاح، ولا مزيدًا من الجنود، وإنما طلب منهم خبراء في التربية والمناهج، فزوّدوه بالخبير الخطير "مستر دنلوب" الذي ظل مسيطرًا على التعليم في مصر دهرًا، يصوغ مناهجه، ويحدّد أهدافه، وكان هذا استمرارًا أو استكمالاً للسيطرة الفرنسية، بل كان هذا أكثر جرأة، وأكثر بشاعة؛ حيث تُسانده سيطرة عسكرية أو احتلال كامل للبلاد، ومنذ ذلك اليوم أخذ "دنلوب" يضع للأمّة نظام تعليمها، الذي كان من أثره ما عبّر عنه شيخنا محمود شاكر بقوله:

"تخريج أجيال متعاقبة من تلاميذ المدارس يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بهذا التحول نحو الإعجاب المزهوّ ببعض مظاهر الحياة الأوروبية، ونَقْد مظاهر الحياة في بلادهم، مع الإيمان بأن ما أُعجبوا به عند الغرب هو سرُّ قوّتهم، وأن ما عندنا هو سرُّ ضعفنا وانهيارنا، وذلك عن

طريق تفريغهم تفريغًا كاملاً من مـاضيهـم كله، مع هتك أكثر العلائق التي تربطهم بهذا الماضي اجتماعيًا وثقافيًا ولغويًا، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والفنون والآداب، ولكنها فنونهم هم، وآدابهم هم، وتاريخهم هم، ولغاتهم هم، أعني الغزاة". أ.هـ

وتصديقًا لهذا اقرأ معي ما قاله العالم المصري الشهير "فاروق الباز" حين قال: "خرجت من التعليم المصري وأنا أعرف كل شيء عن جبال "روكي" في أمريكا، ولم أعرف شيئًا عن مناجم "أبو طرطور" في السويس".

ثم نعود لكلام شيخنا الشيخ محمود شـاكر: "وقد تولّى نظـام "دنلوب" تأسيس ذلك التدمير في المدارس المصرية، مع مئـاتٍ من مـدارس الجاليات الأجنبية، التي يتكاثر على الأيام عدد من تضُمُّ من أبناء المصريين وبناتهم، وقد كان ما أراد الغزاة.

ولم يزل الأمر إلى يومنـا هـذا مستمرًا على مـا أرادوا! بل ازداد بشاعة وعمقًا في سائر أنحاء العـالم العربي والإسلامي -بظهور دعوات مختلفة؛ كالدعوة إلى الفرعونية، والفينيقية وأشبـاه ذلك، في الصحافة والكتب المؤلفة؛ لأن تفريغ الأجيـال من مـاضيها المتدفّق في دمـائها مرتبطًا بالعربية والإسلام، يحتاج إلى الملء بمـاضٍ آخر يغطي عليه،

فجاءوا بماضٍ بائد مُغرقٍ في القِدم والغموض، ليزاحم بقايا ذلك الماضي المتدفِّق الحَي الذي يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل". أ.هـ.
وما قاله شيخنا الشيخ محمود شاكر شَهِد به الخبير التربوي المعروف الأستاذ "حليم فريد تادرس"؛ حيث قال: "مخطئ من ظن أن نظام تعليمنا تغيَّر أو تطوَّر منذ وضعه "دنلوب"، فكل ما يقال عن تغيير أو تطوير هو حركة في إطار مشروع "دنلوب" ونظامه" (من كلمة نشرها في جريدة الأهرام).

ومن هذا الباب أيضًا ما كان يردّده الشهيد سيد قطب كثيرًا: "إن الاستعمار لا يربض على شاطئ القناة، في المعسكرات التي تضمُّ ثمانين ألف جندي بريطاني، وإنما الاستعمار الحقيقي يربض في شارع الفلكي"؛ يشير بذلك إلى وزارة التربية والتعليم، حيث تقع في هذا الشارع.

وكذلك قوله في مقال له في مجلة الرسالة العدد 995 بتاريخ 28 يوليو 1952م: "إنني أنظر في تاريخ الاستعمار فلا أكاد أجد له إسنادًا إلا من المتعلمين.. كل الرجالِ الذين قدّموا للاستعمار خدمات ضخمة، الذين مهَّدوا للاستعمار، ومكنوا له، الذين كشفوا له عن عورات البلاد ومقاتلها، الذين تولّوا عنه تحطيم معنويات الوطن، وقواه الكامنة،

الذين جعلوا أنفسهم ستارًا لمساوئ الاستعمار ومخازيه... كلّهم كانوا من المتعلمين" أ.هـ.

ولكن الذي صور هذا التدمير أبلغ تصوير وأبشعه، هو ما قاله أحد الذين خططوا له، وتولّوا كبره، ذلك هو "اللورد كرومر"، جاء ذلك في كتابه مصر الحديثة، ونقله عنه العلّامة أبو الحسن الندوي في كتابه "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية"، قائلاً: "إن اللورد كرومر الذي كان أكبر رائد إلى تغريب مصر، والعالم العربي بالتتبُّع، قد صوَّر بنفسه الجيل المصري الجديد الذي نشأ في أحضان التعليم الجديد، وآمن بسيادة الغرب وفضل حضارته ومبادئه تصويرًا صادقًا دقيقًا، قد يُنسب إلى المبالغة والقسوة والتشاؤم، إذا صدر عن قلم مفكّر إسلامي، أو عالم مسلم متحفِّظ، ولكن صدوره عن قلم رجل كان من أكبر دعاة التغريب في الشرق، يجرِّده من كل مبالغة وتهويل، ويضفي عليه قيمة علمية كبيرة، ويجعله وثيقة تاريخية تستحق كل اهتمام".

"إن المجتمع المصري في مرحلة الانتقال والتطور السريع، وكانت نتيجته الطبيعية أن وجدت جماعة من أفراد هم "مسلمون"، ولكنهم متجرِّدون عن العقيدة الإسلامية والخصائص الإسلامية، وإن كانوا

"غربيين"، فإنهم لا يحملون القوة المعنوية، والثقة بأنفسهم، وإن المصري الذي خضع للتأثير الغربي، فإنه وإن كان يحمل الاسم الإسلامي، لكنه في الحقيقــة ملحد وارتيابي، والفجوة بينه وبين عالم أزهري لا تقلّ عن الفجوة بين عالم أزهري وبين أوروبي".

أرأيت؟ هذا هو تصوير أحد دهــاقين التدمــير والتغريب، لآثار فعله، وثمرة تخطيطه وجهده، لو قــال هذا عن المتغربين أحدُ علماء الإسلام ودعاته، لاتهّم بالتطرّف، والإرهــاب، والتكفير، فهل توافق على ما قاله "كرومر"؟

أنا شخصيًا لا أوافق!! فما رأيك؟

ليس هذا تفســيرًا تآمرياً للوقــائع والأحداث، ولكنه تصوير للواقع بالأدلة والبراهين، بيان لحقيقة الصراع الذي لا يهدأ، ولا ينتهي، سنَّة الله في خلقه، سنَّة التدافع: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّــاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَــالَمِينَ} [سورة البقرة: 251].

أعــلم أن البعض سيقول: دائمًا نعلّق عجزنا وقصورنا على الآخرين، حتى جهلنا بتاريخنا وفساد منــاهجنا، أين نحن؟ هل نحن دائمًــا مفعول بنا؟! هل يستحيل علينا أن نكون فاعلين؟؟

وأقول: إننـا نفسرُ ولا نبرِّر، التفســير هو معرفة سرِّ الظـاهرة، وأبعادها وحدودها، التفسير هو التشخيص، والتشخيص هو الخطوة الأولى في العلاج.

وأما التبرير فهو الْتماس الأعذار لـما كان، وإعفـاءٌ من المسئولية، وترضيــة بالواقع، ونحن لا نقول بذلك أبدًا، بل إننـا حينما نبحث عن جذور هذه العلل، ندعو في نفس الوقت إلى الثورة عليها، والتخلص منها، والاغتسال من أوضارها، وننعى على من اسـتكان لهـا، ورضي بها أو ساعد على قبولها، ففي هذا التفسير حسابٌ ومؤاخذة أيضًا.

ثمَّ إن أمتنا لم تكن أبدًا مستسـلمة لما يُفعل بها، فالتاريخ يؤكد أن مشروع "محمد علي" لقي مقاومة عنيفة، ومقابلة بمشروع تجديديٍّ من داخل ثقافتنا وتراثنا، ولكن السلطان "محمد علي" الغاشمَ، نكل بقـادة الرأي والفكر، ووأد مشروعهم، ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا، وظلَّ هذا المشروع حيًا إلى يومنا هذا يحمله رجالٌ أُصَلاء أطهـار، وليسوا بأدعيـاء، جيلاً بعد جيل، منذ الشيخ عمر مكرم ومن معه إلى علماء الصحوة ودعاتها، الذين حفلت المكتبة الإسلامية بأعمالهم العلمية التي تحمل لنا كل يوم مـا يضيء جوانب المشروع الحضـاري الإسلامي، ويوضِّح قسماته، ويبيِّن خطورة مشروعـات التغريب والتخريب التي

تبنّتها دولتنا منذ قرنين من الزمان، منذ عهد محمد علي سنة 1802م، فلم نحصد منها إلا ما نعانيه الآن من انهيار واندحار.

فنحن -سواد الأمة- لم نستسلم يومًا، ولم نكن مفعولاً بنا، وإنما المأساة في القشرة المتغربة التي مُلئت أفواهها "هناك" -كما قال "سارتر"- وجاءت لتنطق نيابة عنهم هنا، هؤلاء هم الذين مُكن لهم من قيادة الفكر، والهيمنة على مناهج التربية والتعليم، ومنابر الإعلام، ومراكز التثقيف، وكما قال "سارتر": "يمنعون غيرهم من الكلام".

ولكن مع كل هذا ظلّت أمتنا حيّة فاعلة، وأبدًا لن تموت.

ومن عجب أنهم دسُّوا بضعة أسطر في كتاب التاريخ تقول: "إن عصر النهضة بدأ بحملة نابليون؛ حيث استيقظ الشرق على طلقات مدافع نابليون، الذي جاء إلينا بأول مطبعة عربية، وأول مرسم للخرائط، وأول معمل للكيمياء".

ومن أجل هذه الأسطر صار الغازي المبير الذي دخل الأزهر بخيوله، الذي هدّم القاهرة، وحرّقها، الذي كتب بخطّ يده إلى قوّاده في الأقاليم يقول لكل منهم: "اقتل كل يوم من ثلاثة أشخاص إلى خمسة، واقطع رؤوسهم، وارفعها على الرماح، وطُف بها في جميع أنحاء إقليمك، ثم انصبها طوال اليوم؛ ليتحدث بذلك الناس، إنك إن فعلت

ذلك ملأتَ القلوب بالرعب والخوف، وألزمتهم الخضوع والخنوع، إنني أفعل ذلك كل يوم في القاهرة، فافعل مثلي".

هذا السفاح المبير الذي زَيفّت صورتَه أسطرُ التـاريخ لنـا، حتى وجدنا حملة واســعة من جماعة المثقفين "الرسميين" تدعو للاحتفـال بمرور مائتي على مجيء نابليون إلى مصر.

هل رأيت في الدنيا كلها أمَّة تحتفل وتبتهج بذكرى مجيء غـازيهـا؟ ولكنها العاطفة التي تصنعها بضعة أسطر في كتاب التاريخ.

******

(5)

وهذه هي آثارها (*)

قدمنا قبلاً الحديث عن بعض وسائل التدمير الخبيث لثقافة أجيالِ ما سُمّي "عصر النهضة"، وكيف تمّ تفريغ هذه الأجيالِ من ماضيها كله، وهَتْك العلائق بينها وبين ثقافةٍ كاملةٍ متكاملة، ومن ثمّ تشكيل وجِدانها، وتنفيرها من ماضيها، وتبغيضه إليها، وأشرنا إلى ما كان من مقاومةٍ لهذا التدمير، وأن تيارًا قويًا من أبناء هذه الأمة، حاول التصدّي لهذا الطوفان المهلك، ولكن السلطة كانت بالمرصاد، فساندت مشروع

(*) هذا العنوان والذي قبله مستعار من شيخنا محمود شاكر، برّد الله مضجعه.

التغريب والتخريب، وأعانها على ذلك ما جدّ من منجزات ومخترعات العصر، بحيث باتت الدولة قادرة على أن تتحكّم فيما يسمع الناس، وفيما يقرؤون، وفيما يشاهدون، وكيف يسمُرون، ولا يُسمح لأحدٍ -أيًا من كان- أن يقعد مقعد التوجيه والتعليم والتثقيف، أو يمتلك أية وسيلة من وسائل التوجيه والتعليم إلا بإذنٍ من الدولة، حتى خطبة الجمعة، حتى الدرس في المسجد، كل ذلك صار بيد الدولة، ودَعْ عنك ما ظهر أخيرًا من شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت"، فإنها -مع قدرتها التي لا ينكرها إلا مكابر- لا تُغني غناء التوجيه المباشر، واللقاء المباشر، ثم إنها ما زالت محدودة الانتشار، لا تتاح لكل الناس.

قلتُ: مع كل ذلك هناك تيار أصيل في الأمة لم يستسلم، ولم يتخاذل، ولم يخضع، وما زال ينادي بأعلى صوته "الإسلام هو الحل"، وهذا تيار عريض يشمل -بأطيافه المتعددة- عامة أبناء هذه الأمة.

* * *

ولكن هل نجا هذا التيار تمامًا؟

إن مما يفزعني -منذ عقود من الزمان- هذا الخلل الخطير في ثقافة هذا التيار، فهو الذي نعلّق عليه الآمال، ولكن هذا التيار لم يسلم من

هذا التدمير الثقافي، وأصابه منه شرٌ مستطير، نراه في ثقافة علمائه ودعاته، فما بالك بمن دونهم!!

إن موقف دعاة الإسلام وعلمائه من تاريخنا الإسلامي ليس أقل سوءًا من موقف العلمانيين، بل الشيوعيين الملحدين، بل إن عاطفة هؤلاء العلماء والدعاة، قد تكون أحياناً أشدّ وأقسى وأعنف تجاه بعض رموز التاريخ الإسلامي ورجاله؛ ذلك أنهم يحسبون هذا غيرةً على الإسلام، ودفاعًا عنه تجاه هؤلاء الحكام الذين استغلوا الإسلام وعبثوا به، كما شُبّه لهم.

وقد مضى بي الزمن وأنا أتكلم في صفوف الإسلاميين، منادياً بضرورة تطهير هذه الثقافة التاريخية من الأكاذيب التي يردّدها الدعاة، ويسطرها العلماء، وتنقيتها من المبالغات البشعة، وعلاجها من القصور والنقص، وتنقيتها من سوء التفسير، وخطأ التعليل، وقد بدأتُ ذلك منذ عقود -كما قلت- ولكني كنت أُخافِتُ به أوّل الأمر بين تلاميذي وأبنائي، محاذرًا أن يفهموا مني صراحة أني أخالف شيوخي وأساتذتي، ثم مع تقدُّم السن بدأت أرفع صوتي قليلاً، وبعد أن توّجنا المشيب صرت أصدع بها بصوتٍ عالٍ، ولكن أبدًا لم أجرؤ يومًا على أن أواجه أحدًا من الشيوخ الكبار بما قرأته له، أو سمعته منه، ذلك أني من

الجيل الذي يعرف للأستاذ حقه، وللشيخ قدره، فقد كنا في أوّل نشأتنا إذا لقينا الأستاذ في الطريق إن لم نستطع أن نتركه ونسلك غيره، تركنا له "لَقَمَ" (أي وسط) الطريق، (أستثني من ذلك موقفين -سيأتي ذكرهما- فُرض عليّ فرضًا أن أردّ قول شيوخي).

والآن وقد دعا داعي الرحيل، بدا لي أن أحصر بعض ما سجَّلتُه مما وقع لي من كلام العلماء والدعاة بعامَّة، وشيوخي وشيوخ الدعوة بخاصة، حتى إذا جُمع ذلك في صعيد واحد ظهر خطره، وبدا حجمه، فيتنبَّه له الغافلون، ويعرف أثره الباحثون، فَيَنْهَضُون إلى ما نرجوه من تصحيح وتقويم، أما ترك ذلك مغمورًا في علم أصحابه، مبثوثًا في ثنايا صفحات كتب مطوَّلة، فغالبًا لا يتنبَّه له أحد، ويُترك يفعل فعله كالسم الخبيث يقتل ولا يظهر له أثر.

وأحب أولاً أن أؤكد عدة معانٍ:

1. أنني -حاشاي- لم أذكر هذا عائبًا قادحًا؛ فهؤلاء في جملتهم علماء عظام، تعلمتْ على أيديهم أجيال، وما زالت كتبهم معالم يُهتدى بها، وصُوىً على الطريق، وعيونٌ ثرَّة يمتع منها الباحثون، ويتكئ عليها الدارسون.

2. ثم إن كثيراً منهم جمع بين العلم والعمل، فجاهد في سبيل الله، وأوذي فصبر، وامتحن فصابر، ومات مجاهدًا والسيف في يده، فمن يستطيع أن يقدح أو يعيب هؤلاء؟

3. إنني لن أصرح بأسمائهم (الآن على الأقل)؛ للاعتبارات الآتية:

أ- إن بعض قرّاء هذه الصحف اليومية من الناشئين ربما لم يكن قد قرأ لأحد من هؤلاء شيئًا، وقد سمع به وبجهاده، فإذا قرأ له الآن بعضًا من هذه الشناعات، لن يقرأ له شيئًا بعدُ، فنكون قد ارتكبنا جُرمين:

أحدهما: أننا حُلنا بين هذا الفتى وبين كتب الشيخ وعلمه.

وثانيهما: أننا نكون قد وقعنا فيما ننهى عنه من أن نعرض لشخصية ما من جانب واحد، فننقصها حقها، فما ظنُّك لو كان هذا الذي نعرضه ونجلّيه هو هفوة أو سقطة، لا تساوي شيئًا في جنب علم صاحبها، بل مغمورة في بحره، كما قيل.

ب- إن حُبّ هؤلاء -لا شك- قد سبق وامتلك قلوب الكثيرين ممن سيقرؤون هذا الكلام، فإذا رآنا ننسب لهم شيئًا من الأخطاء أو المآخذ، فسَيلْوي عنقه وينصرف عنك، ولن يسمع لك، هذا إذا لم تدفعه عاطفته إلى الغضب والثورة لشيخه، واتهام من يعيبه بأنه يبغي الصيت والسمعة والعياذ بالله (تذكر: "حبك الشيء يُعمي ويُصمّ").

ج- إننا لسنا في مقام تقويم ومحاسبة، حتى يلزم لإحقاق الحق نسبة كل زلل أو وهمٍ إلى صاحبه.

د- إن كل ما يعنينا هو بيان حجم هذا الخلل والخطر، وبيان خطئه وخلله، لا يعنينا مَنْ قاله، وعمَّن صدر، وهذا يتيح لنا مشاعر محايدة عند المتلقي (أعني القارئ)، فنيسّر له أن يناقش المسألة بمنجهية علمية غير واقع تحت أي تأثير.

هـ- إن هذا أقرب إلى منهج السنة النبوية الذي تعلَّمناه من النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ما بال أقوام يقولون.... أو يفعلون..."؛ فالغاية تصحيح الخطأ بصرف النظر عن صاحبه.

و- إن ما يقال عن "المنهج" و"التوثيق" لا يمكن أن يكون له مكان هنا إذا أحسنَّا قراءة البنود السابقة وتدبَّرناها.

(6)
وهذه هي آثارها

في الكلمة الســابقة بيَّنَّا أن أحدًا لم ينج من آثار هذا التخريب والتدمير الثقافي، ولا حتى علماء الإسلام ودُعاته، وقلنا: إننـا سنجمع شيئًا مما سجَّلناه من واقع كتبهم، حتى يكون دليلاً على خطورة أثر هذا الذي كان، كما قلنا: إن منهجنا عدم التصريح باسم أيٍّ من هؤلاء، ووضَّحنـا سرَّ هذا المنهج، واليوم نبدأ بعرض مـا يتيَّسر من هذه النصوص.

أ- أستاذ جليل، وعالم من علماء الإسلام، شُغله العقيدة، والفلسفة

والفكر، يقول في مقدمة كتابه: "... ولم يكن الإسلام دينًا مغلقًا، بل سرعان ما انفتح العالم الإسلامي لكل داخل فيه، (وسنرى بعدُ أحدَ خلفاء الأمويين -وفي الأمويين روحٌ جاهلية عمياء- يضيق صدره حين يسمع أن العدد الأكبر من المحدّثين والفقهاء والمعاصرين له هم من الموالي، أي من أصول فارسية)، وقد كانت الحرية الفكرية ميزة الحكم الإسلامي في البلاد المفتوحة، وقد دعت هذه الحرية الكثير من أبناء الأمم المغلوبة إلى عرض آرائهم ومعتقداتهم، بل إلى مناقشة المسلمين في عقائدهم... إلخ". أ.هـ بنصه.

فانظر هذه العبارة: "وفي الأمويين روح جاهلية عمياء"، وتأمّل، تلاحظ ما يأتي:

- أن العبارة جاءت بهذا الحكم القاسي القاطع بأسلوب التعمم "الأمويين" والتعميم ليس أسلوبًا علميًا، كما يعرف -لا شك- أستاذ المناهج.
- أن الكتاب في تاريخ الفكر، وليس في التاريخ السياسي.
- أن العبارة عن بني أمية كلها مقحمة في السياق، ولا نُضيف معنى يختلّ الكلام بدونه، أو يقصر عن أداء الغرض منه، فلو حذفتَ العبارة كلها، وقلت: "لم يكن الإسلام دينًا مغلقًا، بل

سرعان ما انفتح العالم الإسلامي لكل داخل فيه، وقد كانت الحرية الفكرية ميزة الحكم الإسلامي... إلخ".

انظر، وتأمّل الكلامَ دون هذه العبــارة المحذوفة، تجدْه -لا شــك- أكثر استقامة واتساقًا، ووضوحًا.

- إن بناء العبارة المحذوفة بهذه الصورة من تقديم وتأخير، وألفاظ قاسية مثل: "روح جاهلية + عمياء + يضيق صدره"، كل هذا -كما يقرر علماء البلاغة- يشهد بقوة العاطفة الكامنة وراء هذه الألفاظ؛ فعاطفة البغض لبني أمية التي نشأ عليها العالم الجليل، هي التي جعلته يقذف بهذه "العبارة" بهذه الحدة، وبهذا العنف، من غير أن يكون لها مجال أو مناسبة.
- أن خطورة مثل هذه الأحكام القاسية التي تصدر على هيئة مسلّمات وبدهيات، في كتابٍ مثل هذا أخطرُ من العبارات المطوّلة والكلام المفصل في شأن الدولة الأموية أو الأمويين، بحيث يكون الكلام مطوّلاً متصلاً تتاح الفرصة للنظر في الأسباب التي أدت إلى الحكم المستخلص منه، أما إلقاء هذه الأحكام القاسية هكذا على هيئة مسلّمات، فذلك أبعد أثرًا،

وأقرب إلى القبول والاستقرار في ذهن المتلقِّي، وهذا هو ما يعبِّر عنه علماء التربية بالخبرة المصاحبة، أو التعليم المصاحب.

- ومن أعجب العجب أن العبارة التي حكاها عن أحد الخلفاء الأمويين، وبنى عليها هذا الحكم البشع ليس لها سند، ولا أصل لها بهذه الصورة.
- ثم على فرض صحتها، فهل تُثبت أنَّ في الأمويين "روح جاهلية عمياء"؟
- والذي لا ينقضي منه العجب أن الكتاب الذي يقدِّم له عالمنا الجليل هو عن المنهج العلمي، أو مناهج التفكير، فهل من المنهج بناء هذا الحكم على مقدمات باطلة؟

فما سرُّ كل هذه الثورة؟ أو سرُّ هذه البغضاء لبني أمية التي جعلته ينسى أوَّليات المنهج؟ أليست سطور التاريخ وراء كل ذلك!!

ب- وعالمنا الجليل هذه المرة ممن يشتغلون بالدعوة أيضًا، ويشارك في الصحف والمجلات بجهدٍ بارز في تجلية مكارم الشريعة، وتوجيه الشباب.

ثم هو أيضًا من "المحققين" الذين يعملون بتحقيق كتب التراث، ومعنى ذلك أنه ممن يعرفون لتاريخ هذه الأمَّة حقَّه، ويرعَوْن قدره.

نجد شيخنا هذا يحقق كتـابًا تراثيًا يحوي تراجم لبعض الصحـابة -رضوان الله عليهم- من بينهم الصحابي الجليل أبو ذرٍّ، وفي الحديث عن وفاة أبي ذرٍّ يأتي ذكر "الرَّبذة" فيقوم المحقق الجليل بالتعريف بهـا في الهامش على هذا النحو: "الرّبذة" بُلَيدة قرب المدينة، وفيها مـات أبو ذرّ، ودُفِن بعد أن نُفِي من المدينة". أ.هـ بنصّه.

لعلك تُسرع بالتساؤل: وماذا في ذلك؟ وما الذي تأخذه على هذا العالم المحقّق؟

والجواب: أن ترجمة أبي ذرٍّ في صلب الكتـاب الذي يحقّقه، تؤكّد أن أبا ذرّ لم يُنفَ، بل خـرج إلى الرّبذة مختـارًا، ويستدلُّ مؤلف الكتاب على ذلك بدليل قـاطع، بحديـث رواه البخاري عن أبي ذرّ يُنكر فيه أن يكون عثمان قد أخرجه!!

يقـرأ المحقق ذلك، ولكنه لا يقع منه موقعًـا، بـل يذهل عنه كل الذهول، ويغطّي على ما قرأه بعينيه مخزونُ ذاكرته، ومكنون عـاطفته، فلا يرى ما قرأه بعينيه، نعم لم يرَ ما قرأ، وإلا فقد كان عليه أن يناقشه ويعلّق عليه إذا لم يقتنع به دليلاً، أو لا يخطُّ بيده أنه نفي إذا اقتنع بمـا قرأ دليلاً.

ولكنه لمّـا قرأ ولم يرَ كان مـا كان، فكتب في هامش الكتـاب

ما يُناقض ما في صُلبه.. وهل يكون ذلك إلا لأنه قرأ ولم يرَ!!

وسرُّ ذلك أنه تعلَّم، وقرأ، وسمع مئات المرات أن عثمان نفى أبا ذرّ الصحابيّ الزاهد، والإنسان النبيل يتعـاطف دائمًا مع المظلوم، ويكره الظـلم والظلمة، فاستقرَّ في عقل الشيخ الجليل، منذ الصغر، أن أبا ذرّ مات غريبًا منفيًا مظلومًا، وعن هذا اشتعلت العاطفة تجاه طرفي القضية كل بما يستحق، فإذا قرأ -بعد أن شبَّ على ذلك وشاب عليه- أن عثمان بريء، وأن أبا ذرّ لم يُنفَ كيف يستوعب ذلك؟؟

هذا ما أراه تفسيرًا لذلك (أنه قرأ ولم ير)، أما أن يقول قائل: إنه لم يقرأ النص الذي يحققه، فهذا اتهام خطير لا أملك أن أوجّه إليه، بل أُجلُّ الشيخ المحقّق عنه، وأجزم بأن الشيخ يقبل أن يُقـال فيه "قرأ ولم يرَ ما قرأ"؛ أي لم يقع في إدراكه، بل أعمته عاطفته (حبك الشيء يُعمي ويُصم)، يقبل الشيخ المحقق أن يقـال فيه هذا ولا شـكّ، ولا يقبل أن يقال: إنه لم يقرأ، وزعم أنه حقق، حاشاه.

(7)

لماذا التاريخ؟؟

بعض الكرام القارئين يلوون رؤوسهم، ويزمّون شفاههم، ويشيحون بوجوههم، ويقولون: التاريخ! التاريخ! لم هذا الإلحاح على التاريخ؟ أما آن لنا أن نلتفت إلى الواقع؟ حدّثونا عن واقعنا المزري وكيف نخرج منه، وكفانا حديثًا عن الماضي!

ولهؤلاء الكرام نقول: إننا -أبدًا- لا ننفصل عن الواقع، فنحن لا نريد من التاريخ أن يكون حقنة مورفين مخدّر تخفّف من آلام واقعنا البئيس، وتعطينا شعورًا بالاعتزاز بالماضي يشيع فينا الرضا والسعادة،

فننام على ما نحن فيه، ونفقد الإحســاس بما نعانيه، أبدًا ليس هذا ما نريده من التــاريخ، فالتــاريخ ليس علم المــاضي، بل علم الحــاضر والمستقبل، والشــعوب تتذكر لتحيــا، ولا يمكن لأمة أن تنهض من غير أســاس، ولا أن تقوم من غير جذور، "فــالتاريخ ليس ركامًا من الحكايات والقصص، بــل هو سجل للنفس البشرية، والفكر المبتكر، والمشروعات المثمرة، والعمل البطولي؛ فالأمم الكبيرة تتذكر لكي تحيــا؛ لأن النسيان هو الموت، والتذكر هو حــالة مــن عودة الوعي، وهذا التذكر يتحوَّل إلى فعل إذا استطاع أن يرتب لنفسه موعدًا مع العقل".

لقد قالوا كثيراً عن التاريخ وقيمة التاريخ، ولكن أجمع ما قيل وأوجزه هو: "التاريخ ذاكرة الأمة".

نعم، التاريخ للأمة كالذاكرة للأفراد، ولك أن تتخيل إنســانًا فقد الذاكرة -والعياذ بالله- تراه صحيح البدن، قوي البنية لا يشكو علة ولا توعكًا، ولكنه لا يملك من أمر نفسه شيئًــا، لا يدري من هو، ولا كيف نشأ، وما علاقته بمن حوله، تخيَّل كيف يكون حــاله، ولقد رأيــت حالة من هذا، كان أستاذًا لنــا في المرحلة بعد الجامعية، وكان معروفًا بالشدة والحدة، لا يتهاون في فتيل ولا نقير، مع سعة في العلم، واستقامة في السلوك، وصرامة في الطبع، وتخرَّجنا عليه، ونحن جميعًا

نُجِلّه، ونقدّره، ونهابه، ونتفق جميعًا على أنه لا يُبارى في تخصصه (أحد علوم التربية).

وكنا نسأل عنه، ونتتبّع أخبـاره، وذات يوم سألنا عنه، فجـاءت الإجابة خافتة واهنة: في حاجة إلى دعائكم بأن يلطف الله به!! إنه فقد الذاكرة، ويتعلّم الآن بعض الأشياء التي تساعده على استمرار الحيـاة، أصبح هذا العملاق القويُّ الحـادُّ كطفلٍ حائـر يحتاج إلى من يأخذ بيده، وهو يتحسس طريقه في الحياة.

وهكذا الأم تمامًا، حينما يضيع منها تاريخها، تفقد ذاكرتها، ويضطرب أمرها، وتعجز عن شقِّ طريقها بنفسهـا، فتسلم مِقْودها لمن يوجههـا، ويعود يملأ ذاكرتها، بما يجعله يقودها حيث يريد هو.

من أجل هذا نُعنى بالتـاريخ، وننادي مـن عقودٍ مضت بضرورة تصحيح التاريخ الإسلامي، وتنقيته مما ملأ صفحاته من أكاذيب، ومـا سوّدها من مبالغات، وتفسيرات كاذبة خاطئة.

ونحن إذ نحـاول ذلك، وندعو إليه لا نبعد عن الواقع والمستقبل، فلسنا نرتضي بالواقع والمستقبل بديلا، ولكن نريد الفهم الصحيح للواقع، والطريق الصحيح لصناعة المستقبل، ولن نتمكن من ذلك أمة بغير ذاكرة (أي بغير تاريخ).

وأقول للذين ينفرون من الإلحـاح على التـاريخ، والدعوة إلى بذل الجهود لتصحيحه، أقول لهم: تأمَّل حولك وتأمَّل نفســك، تجد ما من حديثٍ يدور حولك عن همومِ الأمة، وأوجـاعهـا، إلا وينعطف نحو التاريخ دائمًا، بل لا تجد واعظًـا ولا خطيبًا، ولا محاضرًا إلا وللتـاريخ في كلامه نصيب، يضربه مثلاً. ويتخذ منه مسلّمات، وبدهيـات يبني عليها قوانين ونظريات، ويرتب عليها أحكامًا ونتائجَ.

ومن هنا كان لا بد من تصحيح التاريخ، كي لا نضلَّ الطريق! فإذا كانت هذه المسلّمات، والبدهيـات التي استقيناها من تاريخنا كاذبة، جاءت الأحكام والنتـائج التي بنيناها عليها خاطئة، وما أكثر مـا نراه من ذلك وما أبشعه. (سنحاول فيما يأتي أن نضرب أمثلة ونماذج تؤكد هذا الذي قلناه).

ونعود لتأكيد قيمة التـاريخ، فقد عبَّر عنـــ ذلك الكاتب التشيكي "ميلان هوبل"، فيما كتبه سنة 1917م قائلا: "إن شئت استئصـال شـعبٍ ما، فلتكن أول خطوة هي محو ذاكرته، أحرق كتبه، واسحق ثقافتــه، ودمّر تاريخه، ثم كلف آخرين بتأليف كتب جديدة، وبنــاء ثقافــة جديدة، واختراع تاريخ جديد، ولن يمضي وقت طويل قبل أن تبدأ الأمَّة في نسيان ما هي، وكيف كانت". أ.هـ. [عن مقــال بمجلة

الأهالي صـ 8 بتاريخ 1991/8/30م]، وما قاله هذا الكاتب التشيكي هو الذي حصل معنا في تاريخنا وثقـافتنا تقريبًـا، وقد أشرنا قبلاً إلى شيء من الوسائل والأدوات التي اتبعت في ذلك.

والحديث عن خطورة التـاريخ، وأثره في انبعاث الأمم مـا زال موصولاً، فنقول: إن مـا عرضنا لطرفٍ منـه، وأشرنا إليه من الكيد والتدبير لتشويه تاريخنا، يدخل في باب "التضليل المعلومـاتي"، وإذا كان التضليل المعلوماتي قد أصبح علمًا له نظرياته، ومدارسه، وتطوَّرت وسائله، وتنوَّعت مجالاته، ولا يستطيع أن ينكر ذلك عـاقل، فليس معنى ذلك أن التضليل المعلوماتي لم يظهر إلا في هذا العصر، بل لقد كان موجودًا من قديم، ويمارَس بطرقه ووسائله المتاحة حسب الزمان والمكان، وإن لم تكن قد صِيغت نظرياته ومفاهيمه، وتحدَّدت قواعده، وتمايزت مدارســه، شأنه في ذلك شأن جميع العلوم الإنسـانية، تنشأ وتمارَس ويعيش بها الناس ما يشـاء الله لهم أن يعيشوا، ثم ينشأ العلم بعدُ، كعلم الخدمة الاجتماعية مثلاً.

وآية ذلك -أعني استخدام التضليل المعلومـاتي قديمًـا- مـا كتبه الفيلســوف الفرنسي المعـاصر "رجاء جـارودي"، قال: "في إحدى صفحات الكتاب الرائع لأناتــول فرانس "فوق الحجر الأبيض" يوجّه

أحدُ المؤرخين سؤالاً إلى مدام نوزبير: ما أتعس يوم في تاريخ فرنسا؟ ولم تكن مدام نوزبير على علم بهذا اليوم، وعندئذٍ قال لها المؤرخ: إنه عام 732م، إنه العام الذي جرت فيه معركة بواتيه، التي هُزِم فيها المسلمون، ولم يستكملوا دخول فرنسا، في هذا اليوم انهزمت الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية، ولولا هذا اليوم الأسود ما عاشت فرنسا قروناً متطاولة في ظلام العصور الوسطى حتى سطعت عليها شمس الحضارة". أ.هـ كلام أناتول فرانس في كتابه الرائع.

ثم يكمل "جارودي" قائلاً: هذا النص يثير في نفسي ذكرى لذيذة، إذ كنت في تونس سنة 1945م، وأثناء محاضرة لي عن ابن خلدون ذكرت هذا النص من كتاب أناتول فرانس -الذي كان وقتئذٍ مقيمًا عامًا في تونس- (أي حاكمًا عامًا لها)، إذ بهذا الحاكم العام يأمر بطردي من تونس، بدعوى الترويج للدعاية ضد فرنسا، وكان لهذا الحدث دلالة ومغزى، من وجهة النظر الاستعمارية، فإن مجرد تذكير المستعمَرين (بفتح الميم) بعظمة ماضيهم وثقافتهم، كان يعتبر إهانة للاستعمار، وخطرًا يهدده". انتهى كلام جارودي، وهو غنيّ عن أي تعليق.

وفي عهد الاستعمار في إحدى دول الشمال الإفريقي كان أستاذ الفيزياء الأجنبي يدرس نظريات الضوء، ويستشهد بكلام عالم قديم

مبتكر اسمه "الهازان"، ويذكر تاريخ ابتكاراته ونظرياته. فسأله أحد تلاميذه: من هو "الهازان" هذا؟ فكلفه الأستاذ بالبحث عنه، ووجّهه إلى بعض الكتب الأجنبية في تاريخ العلم، واستطاع الطالب النجيب أن يصل إلى حقيقة "الهازان" فإذا هو "الحسن بن الهيثم"، ولما عاد إلى أستاذه بهذه الحقيقة، لاحظ أن أستاذه الأجنبي لم يعد أبدًا يذكر اسم "الهازان"، وإذا اضطر إلى الحديث عن نظرياته، يشير إليها من غير أن يذكر اسم صاحبها، فكيف يذكر هؤلاء بأمجادهم؟ وكيف يضخُّ في عروقهم دماء الاعتزاز بإسلامهم.

صك الانتداب

ولـكي نتأكد أن هذا التضليل التاريخي أمر مقصود، اعلم أن صكّ الانتداب الذي كلفت به عصبة الأمم انجلترا بحكم فلسطين وإدارتهـا، كان صـك الانتداب هذا ينصّ في مادته رقم 21 على أن تضع الدولة المنتدبة، وتنفّذ في السنة الأولى من هذا الانتداب قـانونا خاصّـا بالتنقيب عن الآثار، والعاديات يتضمن... إلخ". أي أن من عمل الدولة المنتدبة بعث تاريخ مـا قبل الإسلام، والاحتفـاظ بآثاره، والعنـاية بعادياته، وكذلك كان شأن الفرنسيين في سـوريا ولبنان، فقد كان أول ما اهتمّ به الفرنسيون أن ألّفوا في خلال الحرب الكونية الأولى لجانًا في دمشق وبيروت لكتابة تاريخ بلاد الشـام، فكتبوا منه بعض تاريخ لبنان، أما تاريخ سـوريا، فقد كلف الآباء اليسوعيون ثلاثة من رهبانهم سنة 1920م بكتابة هذا التـاريخ، بعد أن قسّـموه إلى ثلاثة عصور، العصر الأرمي والفينيقي، والعصر اليوناني والروماني، والعصر العربي.

ومن هذا البـاب أن الثري الأمريكي "روكلفر" أعلن في سنة

1926م عن تبرّعه بمبلغ عشرة ملايين دولار أمريكي لإنشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر، على أن يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن، واشترط لإتمام هذا التبرع أن يكون المتحف والمعهد تحت إشراف لجنة من ثمانية أعضاء ليس فيها من المصريين إلا اثنان فقط، وأن يستمر هذا الإشراف لمدة ثلاث وثلاثين سنة، ولما رفضت مصر شرط الإشراف هذا، قبض يده وامتنع عن التبرع.

وفي سنة 1932م ظهر كتاب "إلى أين يتجه الإسلام؟" وهو في الواقع ليس كتاباً، بل هو تقرير شاملٌ فاحصٌ باحثٌ عن حالة العالم الإسلامي، وما يموج فيه من تيارات، اشترك في إعداد هذا التقرير مجموعة من الخبراء الأكاديميين وكبار المستشرقين، وقام بتحريره والإشراف على إعداده المستشرق الإنجليزي المشهور "هـ ا. جب"، ويصرّح "جب" في مقدمته بأن الاهتمام بدراسة الإسلام ناشئ عما يعرفونه من سيطرة تعاليمه على المسلمين، ثم يقول: "وهذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف يحيط بأوروبا إحاطةً مُحكمةً تعزلها عن العالم، ومن هنا وجب علينا الاهتمام بهذا العالم ودراسته على هذه الصورة".

ثم يعود فيقول في الفصل السادس والأخير ما نصُّه: "وقد كان

من أهم مظـاهر تغريب العـالم الإسلامي وفرنجته تنمية الاهتمام ببعث الحضـارات القديمة، التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلهـا المسلمون الآن، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيـا وفي مصر، وفي إندونيسيا، وفي العراق، وفي فارس، وهنا من الممكن أن يلعب دورًا مهمًّا في تقوية الوطنية الشعوبية، وتدعيم مقوّماتها". أ.هـ بنصّه.

وهذا كلام واضح مبين يكشف عن أن بعث تاريخ الوثنيـات الجاهلية قبل الإسلام في بلاد العالم الإسلامي لم يكن عفوًا، وإنما كان شـيئًا يُراد، ويُثبت أن هذه الشعوبية البغيضة، والقُطرية الضيقة التي مزّقت الأمة شر ممزّق، كانت عملاً مقصودًا، وكيدًا بِلَيْل.

وفي مدينة "بلتيمـور" بأمريكا عُقِد مؤتمر في سنـة 1943م للمبشّريـن، كان من ضمن قراراته "مضاعفة الجهود المبذولة في توجيه الدراسات للتاريخ الإسـلامي، نحو إعلاء شأن ثورة الزنج والقرامطة والباطنية، وتصويرها على أنها حركات تقدّمية تمثل العدل الاجتماعي، في وجه الخلافة الإسلامية الفاسدة التي يظاهرها علماء سوء فاسدون مفسدون". أ.هـ بنصّه.

أرأيت؟ ألا يشهد هذا بقيمة التاريخ، وأثره في صناعة حـاضر الأمم ومستقبلها!!!

وإن لم يكن هذا كله كافيًا، فانظر حولك، وتأمَّل هذه الضجَّة التي تقيمها الدولة العظمى التي بلغ من قوتها أنها ترمي بجنودها، وأساطيلها، وطائراتها حيث تشاء، لا يقف في وجهها أحد، هذه الدولة بهيلها وهيلمانها تتحرك لوقف مسلسل تليفزيوني تاريخي، وتُرعد وتبرق، وتُرغي وتُزبد، من أجل وقف مسلسل "الشتات"، وتخضع الدولة التي أنتجته، فلا تجرؤ على عرضه، انظر، وتأمَّل كيف يهزّ مسلسل تاريخي هذا العملاق الأمريكي العظيم الذي يُرهب العالم، ولكنه يرتعد من التاريخ.

***

(8)
خطورة التاريخ الإسلامي

وإذا كان أمر التاريخ بهذه المنزلة، وأن الأمم لا يمكن أن تنهض بغير تاريخ، وأن تقوم بغير ذاكرة، فإن التاريخ الإسلامي أشدُّ خطورة في حياة المسلمين من التاريخ في حياة أية أمة، وتشويهه، وطمسه، وتمزيقه بالنسبة للمسلمين أسوأ وأفظع منه بالنسبة لأية أمة أخرى.

ذلك أن التاريخ الإسلامي هو الإسلام مطبقًا، منفّذًا على أرض الواقع، منزّلا على حياة الناس اليومية، فهو في حقيقة الأمر حركة الأمة التي رباها محمد -صلى الله عليه وسلم- بالإسلام، وحركة الإسلام بالأمة.

فالإسلام الذي هو رسالة الله الخاتمة له نوعان من الوجود: فمن حيث هو رسالة السماء إلى الأرض موجود في الوحيين (القرآن الكريم والسنة المطهرة)، فما بين دفّتي المصحف الشريف، وما تحويه دواوين السنة الصحيحة هو الوجود الأول للرسالة الأخيرة من السماء إلى الأرض، رسالة الله إلى خلقه.

والوجود الآخر للإسلام هو استجابة أهل الأرض لرسالة السماء، أو استجابة خلق الله لرسالة الله، هذه الاستجابة هي التي تمثّلت في إيمان المؤمنين بصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وطاعتهم له، {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: 80]، وإجابتهم إياه، والتزامهم بما أمر ونهى، حتى صارت الرسالة واقعًا عمليًا تطبيقيًا، صُنع على عين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم حمله من بعده أصحابه الأكرمون الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الجيل المثالي -كما سمَّاه العلامة محب الدين الخطيب- الذي اختصَّه الله سبحانه بشرف الصحبة، وأمدّهم بخصائص اختصّهم بها، حيث هيَّأتهم الأقدار لإبلاغ هذه الرسالة الخاتمة، وأعدَّتهم لحفظها، عنهم جاءنا القرآن الكريم متواترًا، ومنهم وصلتنا السنة الشريفة المطهَّرة، وفيهم تجلَّى الإسلام مجتمعًا ودولة، سياسة واقتصادًا، ومضى بعدهم التابعون لهم بإحسان على نفس المنهج، وتتابعت الأجيال، جيلاً بعد جيل.

فتاريخ الإسلام، أو التاريخ الإسلامي هو حركة الأمة بالإسلام، وحركة الإسلام بالأمة، كما قلنا آنفًا، فهو الإسلام مطبَّقًا.

* * *

ومن هنا كان تشويه التاريخ الإسلامي معناه القضاء على النموذج، والمثال الذي يمكن أن يقدِّمه الدعاة، النموذج الذي تتطلَّع إليه الأجيال، لتهتدي به، ولتنسج على منواله.

فلو كان التاريخ الإسلامي قد انحرف منذ انتهاء عهد عُمَر، ووقع في متاهات الاستبداد، ومستنقع الفساد، فلأي شيء ندعو الناس؟ ندعوهم لشريعة لا يطيقها البشر، أليس قد عجز عن الالتزام بها الصحابة؟ فما إن "قُتل" عُمَر -الذي كان مهيبًا مخوفًا- حتى انسلخوا من الإسلام، ورجعوا إلى الجاهلية، لا إلى عصبيتها فقط، بل إلى ظلمها وتجبُّرها، وكبريائها، وإلى قيانها وغنائها، وخمرها وانحلالها.

- وقد صار هذا التاريخ بهذه الصورة الشوهاء سدًّا في وجه الدعوة والدعاة، فحين ينادي الدعاة: الإسلام هو الحل، يسألهم العلمانيون، والشيوعيون، والرأسماليون: أيّ إسلام تريدون؟ إسلام عثمان وبني أمية ويزيد والحجاج؟ إسلامَ العباسيين هارون الرشيد ومسرور السيّاف، والخمر والنساء، وأبي

نواس؟! أم إسلام المماليك والمجازر اليومية، والخَوْزقة، والتوسيط؟ أم إسلام الأتراك، والظلم الغاشم، والظلام الجاهل...؟

- ودعاة الإسلام وعلماؤه -مع الأسف- لا يجدون ردًّا لهذه التساؤلات ولا دفعًا، إلا أنهم يقولون: نحن ندعو إلى الإسلام المصفَّى، الإسلام الموجود في الكتاب الكريم والسنة المطهَّرة؛ فالإسلام هو الذي يحكم على الناس، وليس العكس.. هذا أقصى ما يملكونه دفعًا لهذه التساؤلات.
- ولكن هذه الإجابة تسقط ببديهة العقل حيث يقال لهم: إذا كان الصحابة قد عجزوا عن تطبيق الإسلام، وانقلبوا عليه، فهل أنتم تقدرون على تحقيق ما عجز عنه الصحابة؟؟ ولا يملك الإسلاميون لهذا الاعتراض دفعًا.
- ولقد رتَّب المعاندون على هذا أمرًا أخطر وهو: "إن دين الله الأقوم ينبغي أن يظلَّ صلة بين العبد وربِّه، بغير قسر منكم (الدعاة والإسلاميين) ولا إجبار، ألا تخشون أن تضعوا قرآن الله بين يدي طغاة يستغلونه كما فعل الخلفاء طوال ألف وأربعمائة عام؟".

وإذا كان الله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: 40]، فمن سمح لكم يا سادة بأن تبلغوا، وما أنتم بمبلغين، أو تحاسبوا وما أنتم بمحاسبين". أ.هـ بنصّه من مقال بجريدة الأهرام في 12/ 4/ 1987م لرئيس اتحاد الكتاب العرب الأستاذ ثروت أباظة (غفر الله لنا وله).

- إن الدعـاة إلى الرأسـمالية، وإلى الشيوعية، وإلى الليبرالية، يجدون مثالاً ونموذجًا مُعجبًا ناجحًا موجودًا بين الناس يقدّمونه دليـلاً على صحّة ما يدعون إليه، ولكن الإسـلاميين وحدهم هم الذين يدعون إلى منهج غير صـالح للتطبيق، لا لِعَيب في المنهج -حاشـا لله- بل هوَ أقوم المنـاهج، وأعظم الشرائع، سبحـان من أنزله، ولكن العيب في البشر، فهم أعجز من أن يطيقوا هذا الشرع المثالي.

وهذا كلام بالغ الخطورة، فالله سبحانه أحكم الحاكمين أجلّ وأعظم من أن يرسل رسالة لعباده يعجزون عن إجابتها، وشريعة لا يطيقون الالتزام بها: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [سورة الملك: 14].

- ولو تتبّعت المناظرات التي جرت بين عتاة العلمانيين وغلاتهم مع كبار الدعاة والعلماء، لوجدتهم يعتمدون وقائع التاريخ المكذوبة

وصورته المشـــوَّهة، والإســـلاميون لا يجدون جواباً، فهم قد أقرُّوا بهـــذا، ومن أقوالهم وكتبهم يأخذ العلمانيون والملحدون، ما يجبهونهم به.

- ويؤكد خطورة التاريخ الإســـلامي بصورة أوضح، مـــا جاء في تلك الخطّة المشهورة التي وضعتها لجنة من خبراء التربية، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، ورجـــال الأمن؛ للقضـــاء على العمل الإسلامي، فكان من الوسائل الوقائية ما يأتي:

1. "إعادة النظر في مناهج تدريس التاريخ الإسلامي؛ بحيث يكون التركيز على مفـــاسد الخلافة الإسلامية، وخـــاصة العثمانية، وعلى تقدّم الغرب بمجرد إقصائه للدين.
2. تشويه الآباء الروحيين والقيـــاديين للحركة الإسلامية". أ.هـ بنصّه وهو غني عن كل تعليق.

- ومـــن المعلوم المقرّر أن المبادئ والنظم والتشريعات لا تُمتحن الامتحان الصـــادق، ولا تثبـــت صحتهـــا إلا بالتطبيق، فكم عقول كبيرة أُعْجبت بالشيـــوعية وانبهرت بهـــا، ولم تدرك خللها وعوارها، ولكن عند التطبيق ظهر عجزها وفسادها.

وحاشا للإسلام -وهو منهاج ربِّ العالمين- أن يفشل في التطبيق،

ولكنها القراءة الخاطئة المزيّفة لتاريخ الإسلام.

- ومن هنا جاءت دعـوة العلامة الشيخ محب الدين الخطيب إلى تصحيح تاريخ الإسلام، وهو -رحمه الله- من القلة القليلة من علمائنا الذين تنبهوا لهذا الأمر، ونبّهوا إليه، قـال رحمه الله: "... وشباب الإسلام اليوم معذور إذا لم يحسن التأسّي بالجيل المثـالي في الإسلام؛ لأن أخبـار أولئك الأخيـار قد طرأ عليها من التحريف، والبتر والزيادة، وسـوء التأويل من قلوب شُحِنَت بالغلّ على المؤمنين الأوّلين، فأنكرت عليهم نعمة الإيمان.

وقد أصبح من الفرض على كل من يستطيع تصحيح تاريخ صدر الإسلام أن يعتبر ذلك من أفضل العبادات، وأن يبادر له، ويجتهد فيه ما استطاع، لكي يكون أمام شباب المسلمين مثال صالح من سلفهم يقتدون به، ويجدّدون عهده، ويصلحون سيرتهم بصلاح سيرته.

وهذه المعاني تحتاج إلى دراسات علمية عميقة ليتبيّن لنا سرّ الله في تكوين هذا الجيل على يد حامل أكمل رسالات الله عز وجل". أ.هـ

وإلى أن يتم هذا العمل الكبير نسأل الله سبحانه أن يعين أمتنا على ما نزل بها.

(9)

من الإفتراء والتزييف

قد ذكرنا أن تشويه التـاريخ الإسلامي أدى إلى حدّ تربية عـاطفة البغض والكراهية، والنفور والازدراء عند كل من درس التـاريخ الإسلامي بهذه الصورة الشوهاء.

واليوم نكشـف زيف بعض هذه الافـتراءات، التي أورثت دراستها عـاطفة من الكراهية للأتراك، والخلافة العثمانية، حتى صار من البدهيات والمسلّمات التي تبنى عليها الأحكام، وتقام عليهـا النظـريات.

تعصّب العثمانيين وغِلظتهم

صار ذلك أمرًا مسلّمًا، غير قابلٍ للنقاش، حتى إنك تجد الذين يعدّدون أسباب ضعف الدولة العثمانية وانهيارها، وتكالب الدول الأوربية عليها، تجدهم يعدّون تعصّب العثمانيين وغِلظتهم أهم هذه الأسباب.

والواقع عكس ذلك تمامًا، فقد كانت الدولة العثمانية أكثر تسامحًا مع المسيحيين من مذاهب المسيحيين بعضهم مع بعض، ولا أستطيع أن أثبت لك ذلك بأقوال مؤرخين من الأتراك، أو من العرب، أو من أي مسلم، ولكني أقدّم لك شهادة مؤرّخين وباحثين أوروبيين، هم بالطبيعة يتحاملون على الأتراك، ولكن الحقيقة بلغت من الوضوح حدًّا لم يستطع إنكاره، فها هو الباحث الأوربي الشهير "توماس أرنولد" يتحدث عما لاقاه الأرثوذكس من طائفة الكاثوليك، ويوازن بين ما يلقاه المسيحيون من الأتراك، وما يلقاه المسيحيون بعضهم من بعض، فيقول: "إن المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين -على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين- لتدلّ على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفًا في سائر أوروبا، وإن أصحاب Calvin في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد

Unitarians من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضـوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هـابسبورج المتعصبة، ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنّوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي، وحدث أن هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجأوا إلا إلى تركيا، في نهاية القرن الخامس عشر، كذلك نرى القوازق Cossaks الذين ينتمـون إلى فرقة المؤمنين القدماء Old Believers الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية، قد وجدوا من التسـامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية".

ثم يشـير إلى ما تتمتع به الكنـائس التي تقع تحت حكم السلطـان العـثماني من حرية، وما تلقاه من رعاية، وما يجده بطارقتها من حماية، فيضرب "مقاريوس" بَطريق كنيسة أنطاكيا (وهي تحت نفوذ العثمانيين) مثلاً يحسده الآخرون على مـا ينعم به، ويتمنون أن ينالوا حظه، فيقول: "وربما كان يحقّ لمقاريوس بَطريق أنطاكية في القرن السابع عشر أن يهنّئ نفسه حين رأى أعمال القسوة الفظيعة التي أوقعها البولنديون من الكاثوليك Catholic Poles على روسيي الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، قـال مقاريوس: "إننا جميعًا قد ذرفنـا دمعًـا غزيرًا على آلاف الشـهداء الذين قُتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على

يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين، وربما كان عدد القتلى سبعين ألفا أو ثمانين ألفا، فيا أيها الخونة! يا مردة الرجس! يا أيتها القلوب المتحجرة! ماذا صنع الراهبات والنساء؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم؟ ولماذا أسمّيهم البولنديين الملعونين؟ لأنهم أظهروا أنفسهم أشد انحطاطًا وأكثر شراسة من عُبّاد الأصنام المفسدين، وذلك بما أظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين، وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس".

وبعد أن يلعن البولنديين الكاثوليك، كِفاء ما كان من فظائعهم، وقسوتهم، يدعو للدولة العثمانية بدوام البقاء، فيقول: "أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد.. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهودًا أو سامرة: أما هؤلاء البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس، ولا بأن يتركوا لهم قسًا يعرفون منه أسرار دينهم"، حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى الترك لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أية حكومة مسيحية".

وهذا كلام مُبين ناطق بسماحة الأتراك مع الأديان المخالفة، بل إن "توماس أرنولد" حكى عن شهود عيان كيف كان المسيحيون يدخلون طوعًا في الإسلام، ويتمتعون بمنزلة ومكانة ونفوذ في دولة الخلافة العثمانية.

فهل تُرى هذا الكلام يفيد في تغيير النظرة إلى العثمانيين، أم إن "سلطان العاطفة" يحول دون الفهم وتفتح القلب والعقل؟؟

أملي كبير في الشباب، أمّا شيوخنا الذين تخطوا مرحلة التكوين فهيهات هيهات، فالأستاذ الجامعي الأكاديمي الذي يتحدث عن فظاعة الأتراك، وأنهم لم يكتفوا باستعمار الدول العربية بل استعمروا أوروبا أيضًا أسوأ استعمار.

فهل من يقول مثل هذا بقادرٍ على أن يتغير؟

(10)
عن سماحة الأتراك أتحدث

نتابع الحديث عن سماحة الأتراك، وجهودهم في نشر الدعوة، وعمدتنا في ذلك المصادر الأجنبية، التي لخصها لنا واعتمد عليها "توماس أرنولد"، وعنه نأخذ، ونلاحظ أن هؤلاء مع اعترافهم بسماحة الأتراك، وأنهم لم يدفعوا أحدا للدخول للإسلام قسرًا، مع اعترافهم بهذا إلا أنهم يسمّون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة "خداعًا"، ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئًا.

يعبّر الباحث الأوروبي عن اهتمام الأتراك بالدعوة، فيقول:

"وقد رأى الأتراك أن أعظم خيرٍ يستطيعون تقديمه لأي فردٍ هو أن يهدوه إلى دين الإسلام، وفي سبيل هذه الغاية لم يدعوا وسيلة للإغراء(!!) إلا فعلوها؛ يحدّثنا رحالة هولندي، عاش في القرن السادس عشر أنه بينما كان يُظهر إعجابه بمسجد أيا صوفيا الكبير حاول بعض الأتراك أن يؤثّروا في عواطفه الدينية من طريق إحساسه بالجمال، فقالوا له: "إنك لو أصبحت مسلمًا، لاستطعتَ أن تأتي هنا كل يوم من أيام حياتك"، وبعد ذلك بقرن تقريبًا حدث لرحالة إنجليزي ما يشبه تلك الحادثة؛ إذ قال: "وقد يسألون مسيحيًا بدافع من فيض حماسهم، في أدب جم (انظر في أدب جمّ) كما سألوني أنا نفسي عند مدخل مسجد أيا صوفيا: لماذا لا تُصبح مسلمًا، فتكون كأحدنا ؟"، ويتحدث عن تلك الاحتفالات التي يقيمها الأتراك ابتهاجًا بالمسلمين الجدد مبيّنا دلالتها، وواصفًا إياها، فيقول: "ومما يدل على الحبّ الروحيّ المتوقّد الذي جعل هؤلاء القوم في مثل هذه المنزلة من الغيرة على نشر الدين، تلك الأفراح الشعبية التي كانوا يُحيّون فيها من دخلوا طوعًا من المسلمين الجدد في الإسلام، فكان المسلم الجديد يمتطي حِصانًا، ويطاف به في طرقات المدينة، وهم في نشوة النصر".

ويتحدّث عن مكافأتهم للمسلمين الجدد (تأليف قلوبهم)، فيقول:

"فإذا توسّموا في هذا المسلم إخلاص النية، أو كان ذا مكانة استقبلوه بتكريم عظيم، وأمدّوه بما يعينه".

ثم يؤكد أن هذا الشغف بالدعوة، والحرص على هداية الناس للإسلام، كان سمة يُعرف بها الأتراك، فيقول: "إن في نفوس الأتراك غَيْرة لا يكاد يصدّقها العقل حين يبتهلون إلى الله أن يحوّل الناس إلى الإسلام، أو بعبارة أصحّ أن يحوّل المسيحيين إلى ديانة الأتراك المارقة (تأمّل).. إنهم كل يوم يبتهلون إلى الله في مساجدهم مخلصين أن يؤمن المسيحيون بالقرآن، وأن يهتدوا على أيديهم، ولم يدعوا للتأثير وسيلة من وسائل الترهيب (كذا) والترغيب إلا فعلوها". أ.هـ

وهذا الكلام ينطق بما في قلب صاحبه من حقد وتعصُّب، فالديانة الإسلامية مارقة، وبعد أن شهد للأتراك بأنهم لم يرغموا أحدًا على الإسلام كان لا بد أن يدسّ كلمة "الترهيب"، ناسيًا أنه يناقض نفسه.

ثم يفسّر سرّ نجاح الأتراك في الدعوة إلى الإسلام، مبينًا حالة الانحطاط والفساد التي كانت تسود الكنيسة الإغريقية، والحياة الاجتماعية، ويجعل ذلك من العوامل التي أدّت إلى أو ساعدت على نجاح الأتراك في نشر الإسلام، فيقول:

"إن حالات المجتمع المسيحي نفسه قد جعلت هذه الجهود التركية التي تنطوي على الغيرة والحماسة الدينية أشدّ أثرًا، وأعظم قيمة".

ويعدّ تدهور الكنيسة الإغريقية أهم هذه الأسباب، إلى جانب طغيان الدولة البيزنطية في الشئون الزمنية (أي الدنيوية)، أضف إلى ذلك الاستبداد في الأمور الدينية، مما جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء قرار حاسم حرّم كل مناقشة في شئون الأخلاق والدين". أ.هـ.

وبعد أن أفاض في تصوير هذا الفساد، قال:

"كل ذلك جعل الناس يتقبّلون الإسلام بصدرٍ رحب نظرًا لتعاليمه الواضحة، المفهومة التي تقوم على الوحدانية، وقد انتهت إلينا أخبار عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا، ولم يكونوا من البسطاء والعامة فحسب، كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم.

كما انتهت إلينا أخبار عن الطريقة التي أجرى بها الأتراك أرزاقًا أسخى على هؤلاء الرهبان والقساوسة الذين اعتنقوا الإسلام، حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى اعتناق الإسلام.

وبينما كانت أدرنة لا تزال عاصمة الأتراك (أي قبل فتح القسطنطينية عام 1453م) كان البلاط قد اكتظّ بالذين أسلموا، ويقال إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك، وكثيرًا

ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيرًا: ومن أسبق هذه الحالات ما يرجع تاريخه إلى سنة 1140م عندما أسلم ابن أخي الإمبراطور جون كومنين John Comnenes وتزوّج إحدى بنات مسعود سلطان قونية" أ.هـ.

وأعتقد أن هذا الكلام لا يحتاج إلى تعليق، ولكن...؟؟

يواصل "توماس أرنولد" حديثه عن سماحة الأتراك مع المسيحيين، وعن شغفهم بالدعوة إلى الإسلام، وكيف تسابق المسيحيون إلى الدخول في الإسلام، فيقول:

"ولقد باشر العثمانيون السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التي قاموا فيها بتوسيع مملكتهم في آسيا الصغرى، ولم تكد حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة تسقط في أيدي العثمانيين سنة 1453م، حتى توطّدت العلاقات بين الحكومة الإسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت.

ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني، بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية، فحرّم اضطهاد المسيحيين تحريمًا قاطعًا، ومنح البطريق الجديد مرسومًا يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه

من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق، وقد تسلم جناديوس -أول بطريق بعد الفتح التركي- من يد السلطان نفسه، عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية، وحصان محلى بطاقم فاخر، وكان يتميزّ بركوبه في خلال المدينة تحف به حاشيته". أ.هـ.

ولم يقتصر الأمر على التوقير والاحترام، ومظاهر التقدير والتكريم للبطريرك، بل صار للبطريرك سلطة واسعة على رعايا الكنيسة، واستقلال كامل بشئون الطائفة من الناحية الدينية؛ يقول "توماس":

"ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعًا أيضًا بسلطة أهلية واسعة، فكان من عمل البطركية أن تفرض الغرامات، وتسجن المجرمين في سجن معدٍّ لها، بل كان لها أن تحكم بالإعدام في بعض الأحيان، بينما صدرت التعليمات إلى الوزراء وموظفي الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام: وكانت المراقبة التامّة على الشئون الروحية والكنسية (وهي التي لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقًا بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها في

أيدي البطريك وأعضاء المجمع الأعظم، وكان في استطاعة البطريك أن يدعوهم متى شاء، كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلاً من جانب الحكومة". أ.هـ

ولم يقتصر الأمر في نفوذ البطريرك على الكنيسة ورعاياها، بل كان له أيضًا كلمة مسموعة لدى السلطات التركية يجاب طلبه، وتُقبل شفاعته، يقول "أرنولد":

"ولما كان هذا البطريك معترفًا به موظّفًا في الحكومة السلطانية، كان يستطيع أن يقوم بعملٍ كبير في رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجّه أنظار السلطان إلى أعمال الحكام الظالمين". أ.هـ

وقد شملت هذه المعاملة رؤساء الكنائس في الولايات، ولم تكن قاصرة على بطريرك الكنيسة الكبرى فقط، قال "أرنولد": "كذلك عومل الأساقفة من الإغريق في الولايات معاملة تنطوي على رعاية بالغة، وعُهِد إليهم بكثير من القضايا المتعلقة بشئونهم المدنية، إلى حدّ أنهم ظلّوا حتى عصور حديثة يعملون في أسقفياتهم، كما لو كانوا عمالاً من الأتراك على الأهالي الأرثوذكس، وبذلك حلّوا محلّ الأرستقراطية المسيحية القديمة التي استأصل الغزاة شأفتها، ونجد أن رؤساء الكنيسة كانوا -بوجه عام- أكثر نشاطا باعتبارهم من الأتراك منهم

باعتبارهم قساوسة من الإغريق، وطالما علّموا شعبهم أن السلطان قد اكتسب قبولاً إلهيًا بوصفه حامي الكنيسة الأرثوذكسية.

ومن ثم أُذيع منشور يكفل للأرثوذكس حق استخدام الكنائس التي لم تصادرها الحكومة؛ لتحويلها إلى مساجد، ويمنح لهم حق الاحتفال بطقوسهم الدينية تبعًا لعاداتهم القومية".

"ولم يُبَيِّن صاحبنا أن هذه الكنائس التي حُوِّلَت إلى مساجد كان كل رعاياها قد تحوّلوا إلى الإسلام، ولكنه -كما قلنا- لم يسلم من تحامله على الأتراك أبدًا".

وقد كان من أثر ذلك التسامح ما عبّر عنه بقوله:

"وكان من أثر ذلك أن الإغريق، ولوأنهم كانوا يفوقون الأتراك عددًا في كل الولايات الأوروبية التابعة للدولة، قد جعلهم التسامح الديني الذي تمتّعوا به، وما نالوه من حماية لحياتهم وأموالهم، يسرعون إلى الموافقة على تغيير سادتهم، وإيثار سيادة السلطان العثماني على سيادة أية سلطة مسيحية".

وقد سبقت الأتراك سُمعتهم، وحُسْن سيرتهم، مما كان يسهّل عليهم الفتوحات؛ "فقد كان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة يلقون ترحيبًا من جانب أهل البلاد، ويعدّونهم مخلّصين لهم من الحكم الظالم المستبد،

فقد صيّروا الشعب في حالة من العبودية يرثى لها". أ.هـ بنصّه.

فهذه شهادات قاطعة ينقلها لنا "توماس أرنولد" عن المؤرِّخين الأوروبيين، والرحالة المعاصرين الذين يشهدون للأتراك شهادةً عن عيان، "والفضل ما شهدت به الأعداء" "وشهد شاهد من أهلها".

فمن الذي رسم هذه الصورة البشعة للأتراك، ووضعها في بؤرة الشعور لكل المثقّفين والدارسين؟؟ نعوذ بالله من الخذلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(11)

عندما كانت إستانبول عاصمة الدنيا

حينما فتح فتى الترك الشاب محمد الفـاتح القسطنطينية، استجـابة لبشـارة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتحقيقًا لأملٍ حاول المسلمون تحقيقه منذ دفن الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري تحت أسوارهـا- عندما فتحها محمد الفـاتح غيّر اسمهـا إلى "إسلام بول" (أي انتشـار الإسلام) واتخذها عاصمة بعد "أدرنة"؛ تفـاؤلاً وأملاً أن ينساح منها الإسلام إلى كل أرجـاء الدنيا، وتحوّل اسمهـا إلى "إستـانبول" على الألسنة، وصارت تُعرف به إلى الآن.

وازدهرت إستانبول وصــارت مدينة العلوم، والفنون، والآداب، والحضارة، والرقي، ومن قبل كل هذا ومن بعده، صـارت مدينة الحرية، والتسامح، يحكي لنا "توماس أرنولد" عن "مارتن كروسيوس" Martin Crusius شهادته على واقع الحياة في إستانبول، فيقول:

"ومن الغريب أننا لم نسمع مطلقًا أن شيئًا من الجرائم، أو المظالم قد وقع بين البرابرة (يقصد الأتراك)، وبين البقية الباقية في هذه المدينة الكبرى (يعني البقية التي بقيت على دينها المسيحي)، فالعدالة ممنوحة لكل فرد، لذلك وصف السلطان القسطنطينية (انظر إصراره على الاسم القديم) بأنها ملجأ العالم كله (تأمّل جيّدًا)؛ لأن جميع التاعسين يختبئون هناك في أمان، ولأن العدالة توزّع على الناس جميعًا، على أقلهم شأنًا، وأعظمهم نفوذًا، على المسيحيين، والكفار (يعني المسلمين) سواء بسواء". أ.هـ

انظر وتأمّل: السلطان يصف عاصمته بأنها ملجأ العالم، فهو على وعي بما يعمل، وعلى اطّلاع بأحوال الدنيا من حوله، فهو يباهي بأن عاصمته ملجأ العالم.

وانظر وتأمّل المؤرخ المسيحي الغربي المتعصّب ضدّ الأتراك وضدّ الإسلام، هذا المؤرّخ الذي بلغ تعصّبه أنه يسمي الأتراك "البرابرة"،

ويسمي المسلمين "الكفار"، ولا يريد أن ينطق أو يكتب اسم المدينة الجديد "إستانبول"، فيصر على أنها "القسطنطينية"، هذا المؤرخ مع كل هذا التعصّب يعترف ويقرّ بالآتي:

- أنه لم يُسمع شيء مطلقًا عن الجرائم أو المظالم بين "البرابرة!!" والمسيحيين.
- أن العدالة موفورة لكل فرد.
- أن العـدالة توزّع على النـاس جميعًـا، لا تتأثر بمكانة ومنزلة ونفوذ الأشخاص.
- أن جميع التاعسين يختبئون هناك في أمان، ولست أدري ماذا يريد بالتاعسـين، ولكن الذي يتبـادر إلى الذهن، ويفهم من كلمة "يختبئون" أنه يريد بهم المطارَدين المضطهَدين المظلومين.

تأمّل فيما قرأت واستحضر ما يأتي:

1. الصورة البشـعة لدى مثقفينـا عن جلافة الأتراك، وظلمهم، وعنجهيتهم.
2. صـورة اللاجئين السياسيين الآن إلى الغرب، وكيف انقلب الحال.
3. محـاولات الهجرة إلى العواصم الغربية، والقيود التعسفية التي

يضعها الغربيون، من شرط الكفاءة العلمية والخبرة الفنية، بل والقدرة المالية؛ حيث تشترط بعد هاتيك البلاد أن يحوّل من يريد الهجرة إليها مبلغًا لا بأس به من آلاف الدولارات، وكأنهم بهذا لا يكتفون باستنزاف العقول، والخبرات والكفاءات، بل أيضًا المال، وهم بهذا يريدون امتصاص المهاجرين والاستفادة منهم، وليس البرّ بهم وإتاحة الفرصة لهم وتحقيق رغبتهم.

4. تأمّل أيضًا المؤتمرات، والكفاءات والتدابير التي يتحدثون عنها صباح مساء؛ لوقف الهجرة التي يسمونها "غير مشروعة".

5. تأمّل فتح القسطنطينية، وقارنه، لا أقول بدخول الجحافل الصليبية إلى بيت المقدس وبلاد الشام، ولا بدخول جيوش الاستعمار إلى ديار العالم الإسلامي، بل قارنه بدخول الجيوش الألمانية إلى باريس في الحرب العالمية الثانية، التي لم يمضِ عليها إلا بضع وستون عامًا، قارن وانظر إلى ما قام به عساكر الألمان من فظائع في شوارع باريس، وما لاقاه الفرنسيون من إذلال وامتهان، وما كان من اغتصاب الفتيات الفرنسيات على قارعة الطريق -وبعض اللائي اغتصبن ما زلن أحياء إلى اليوم، وما زال الذعر يطلّ من أعينهن كلما ذكر اسم

الألمان- قارن هذا بما حكيناه لك آنفًا عن سماحة الأتراك عند دخولهم القسطنطينية، هذه السماحة التي شهد بها المؤرّخون الغربيون، والرحّــالة المعاصرون أنفســهم، هذه السماحة التي كانت أوضح وأكبر من أن يكتمها هؤلاء، مع بُغضهم وتحــاملهم الذي يفوح من بين السطور.

- والأعجب من كل هذا أن الفرنسيين وجدوا -رغم كل هذا- ما يجمعهم بالألمان، فقــادوا معًا دفّة الاتحــاد الأوربي، وصارتا نموذجًا للصداقة والتعاون والتقارب.

وما زلنا نحن نحمل بين جوانحنا صورة شوهاء مستبشعة للخلافة العثمانية، التي كانت حاملة لواء الإسلام نحو خمسمائة عام.

ولكنها بضعة أسطر في كتاب التاريخ.

(12)
من الإستسلام للعاطفة

أحد الأساتذة الجامعيين "الأكاديميين" نشر كتاباً في الخمسينيات من القرن الماضي، تعرّض فيه للسلطان مراد الأول العثماني، وذكر عنه قصة "طريفة" جاء فيها: إن السلطان كان بينه -كعادة العثمانيين- وبين أعدائه حروب ومعارك طاحنة، وفي نهاية إحدى هذه الحروب، كانت معاهدةٌ بين الطرفين، وبعد الاتفاق على بنود المعاهدة وشروطها، تمّت كتابتها، وبالطبع كان لا بد من التوقيع عليها.

فلما قُدّمت للسلطان كي يوقّع عليها -وكان أميّا لا يعرف القراءة

والكتابة- لطّخ يده اليسرى بالحبر، ثم طوى إبهامه، ومدّ أصابعه الثلاثة "السبابة والوسطى والبنصر" وترك الخنصر منفرجًا عنها قليلاً، ثم ضغط بيده -وأصابعُه بهذه الهيئة- على المعاهدة، فظهرت على الورقة صورة تشبه "الطُّغْراء" التي نعرفها، وبعد ذلك أخذ كاتب السلطان الورقة، وكتب في داخل هذه الصورة -التي طبعها السلطان بيده- كتب في داخلها اسمَ السلطان، واسمَ أبيه ثم لقب "خان"، وعبارة "عزّ نصرُه".

ولما نظر الناظرون إلى هذا الرسم الذي صنعه السلطان -بسبب جهله- وجدوا فيه نوعًا من الجمال، فصنعوا "الطُّغْراء" على هذا الرسم الذي جرى مصادفةً من السلطان". انتهى ما جاء في كتاب الأستاذ الجامعي الأكاديمي عن قصة الطُّغْراء ونشأتها.

والعجب أن المؤلف الأكاديمي ساق هذا الكلام مساق الجدّ، وحمله على محمل الصدق، وإن كان قد خرج من عُهدته؛ إذ أشار إلى مصدره الذي أخذ عنه القصة بكاملها، وأنه أخذه عن أحد المؤرّخين الغربيين.

ومؤلفنا الجامعي وإن كان قد أدّى حق الأكاديمية ووفّى بشرطها من حيث أبان عن مصدره، ووثّق قوله، إلا أنه لم يستكمل عُدّة المؤرّخ من عِدَّة نواحٍ منها:

أ- أنه لم يلتفت إلى أهواء الرواة، ولم يتحفّظ عليها، فمعلومٌ الحقد الكامن في نفوس الغربيين تجاه الأتراك، والذي يتوارثونه جيلاً عن جيل، ومن له أدنى إلمام بالتاريخ أو الثقافة العامة يدرك ما تفعله كلمة "الترك" في نفوس الغربيين للآن، فكان عليه أن يتوقّف في نقل هذا الكلام قبل أن يتثبت منه، وذلك ليس بعسير لو أراد.

فلو بحث عن معنى كلمة "الطُّغراء" في المعاجم العربية، لقاده البحث إلى معرفة تاريخ "الطُّغراء".

ب- أنه لم يملك الحسّ المرهف والقدرة على التوسُّم، واستكناه ما يُنقل إليه، وإدراك البواعث التي أدت إلى اختلاقه.

ج- أنه -مع كونه مسلمًا- غابت عنه الثقافة الحياتية الإسلامية، حيث يستعمل المسلم يده اليمنى وليس اليسرى في مثل الموقف، فلم يلتفت إلى أن الحكاية تقول: "مدّ السلطان يده اليسرى..." ومنذ قرون طويلة نبّه مؤرخنا الجليل ابن خلدون إلى "اختلاق العوائق"، وضرورة أن يتيقظ لها المؤرخ وهو يستنطق ما بين يديه من مرويات.

د- إن الملوك والسلاطين قبل السلطان مراد كانوا يستخدمون الخاتم المعدني المنقوش باسمهم ولقبهم بصرف النظر عن معرفة الكتابة وعدمها، ولا شكّ في أن هذا كان معروفًا لدى السلطان مراد وكاتبه،

ورجال ديوانه، لا يشكّ عاقل أنهم عرفوا هذا من أمراء الإسلام، وسلاطينه، وخلفائه، فهذا أمرٌ معروف منذ خاتم الرسول -صلى الله عليه وسلم- فكيف غاب عن السلطان مراد وحده، وكيف عجز وحده عن أن يتّخذ خاتمًا يوقّع به ويواري به جهله.

هـ- ثم هل هذه المعاهدة أول ورقة وقّعها السلطان مراد في حياته؟ ألم يوقّع قبلها رسائل للملوك والسلاطين من أصدقاء وأعداء؟ ألم يوقّع قبلها أوامر وقرارات وتعاليم لرجال دولته؟ فكيف وقّعها؟ ولماذا كانت الورطة وتلطيخ يده بالحبر في هذه المعاهدة وحدها؟

و- أين كان كاتب السلطان؟ وهو يعلم -كما يعلم السلطان- أن المعاهدة لا بد من توقيعها، فكيف لم يتدبر هذا الأمر مع السلطان من قبل؟ وكيف يترك السلطان حتى يغمس يده في الحبر ويصنع هذه الصورة الطريفة؟ ألم يقل لنا: إن الكاتب تناول الورقة وكتب في ثنايا الصورة اسم السلطان واسم أبيه؟ ألم يكن الأولى بكاتب السلطان، بل هو المعقول أن يتدبّر في طريقةٍ لتوقيع المعاهدة، ولو أن يبصم السلطان بإصبع واحد بدلاً من هذه الصورة المخزية؟

ز- وأمرٌ آخر أشدّ وضوحًا من كل ذلك، هو أن الأيسر والأسهل والمتبادر إلى الذهن أن يبسط الإنسان أصابعه كلها على الورقة،

فلماذا لجأ السلطان إلى هذه الصورة؟ وإذا قلت لي: إن سعة المكان أو المساحة المخصصة للتوقيع لا تسمح باليد كلها، فالجواب أن هذا كان يستدعي ضمّ الأصابع الأربع لا تفريق الخنصر وإبعاده عن الأصابع الأخرى.

ثم حاول أنت الآن أن تفعل بيدك ما زعموا أن السلطان قد فعله، ستجد أن الأمر يحتاج إلى معاناة، ومحاولة، وقصد، وإرادة، ولا يمكن أن يأتي هكذا عفوًا، بل الأيسر والأسهل أن يضع الإنسان أصابعه الأربعة متجاورة مضمومًا بعضها إلى بعض، فهل كان السلطان يفكر، ويقدّر، ويتعمّد أن يصنع هذه الصورة المعجبة؟ لا شكّ في ذلك، وإلا لما عنّى نفسه بتفريق أصابع وقبض آخر بهذا الشكل!! ومن أين استوحى السلطان هذه الصورة التي تعمّد رسمها؟ سؤال يحتاج إلى جواب!

ح- ثم الأظهر من ذلك أن "الطّغراء" توضع في أعلى الورقة، وليس في أسفلها، فإذا كان هذا الرسم المعجب، قد ظهر أول مرة عند توقيع سلطاننا الجاهل الأمّي، فمن حوّلها إلى أعلى الورقة؟ وكم من الزمن استغرق هذا التحوّل؟ وهل يحتفظ التاريخ بوثائق بعد السلطان مراد نجد "الطّغراء" فيها مكان التوقيع؟ العقل المستقيم

يقول: إذا كانت "الطّغْراء" قد وُلِدَت على أسفل الورقة، من ذاك الزمن (على الأقل في عهد السلطان مراد) فمن غيّرها؟

وأخيرًا

نقول: إن القصة في أساسها مختلقة، لا تحتاج إلى كل هذا المجهود العقلي في إبطالها، فالواقع يكذبها، والتاريخ يضربها بنعاله على أم رأسها (على حد تعبير الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله)، ودائمًا صُنَّاع الأكاذيب يقعون في أخطاء قاتلة تفضح كذبهم.

ماهي الطّغْراء؟

"الطّغْراء": الطُّرّة تُكْتَب في أعلى الكتب والرسائل فوق البسملة، تتضمن نعوت الحاكم وألقابه، وهي كلمة تترية استعملها الروم والفرس، ثم أخذها العرب عنهم، وتسمى أيضًا "الطُّغْري والطغَري".

و"الطغرائي" نسبة إلى الطغراء، وهو صانعها أو كاتبها. (انتهى بنصه من المعجم الوسيط).

و"الطغرائي" المنسوب إلى الطغراء هذا هو الشاعر المشهور

الحسين بن علي بن محمد الطغرائي المتوفى سنة 513هـ صاحب "لامية العجم" القصيدة المطوّلة المشهورة، وقد كان كاتبًا في بلاط السلاجقة، والسلاجقة كانوا أقرب السلاطين والحكام للأتراك العثمانيين، وأكثرهم احتكاكًا بهم "يعني لا بد أنهم عرفوا الطغراء قبل السلطان مراد، وأنها تكون في أعلى الورقة"، والسلطان مراد الأول ولي سنة 761هـ، ومعنى هذا أن الطغراء كانت معروفة مشهورة قبل معاهدة السلطان مراد هذه بنحو قرنين ونصف من الزمان على الأقل.

ولكنها بضعة أسطر في كتاب التاريخ، صنعت عاطفة الازدراء للعثمانيين لدى الأستاذ الأكاديمي، فجعلته يقبل هذه السخرية بالسلطان المجاهد "السلطان مراد الأول"، أعان الله أمتنا على ما نزل بها.

(13)

صفحة من تاريخهم معنا

بعض بني جلدتنا صاروا يفزّعوننا صباح مساء بمسافة التخلّف بيننا وبين الغرب، ويفزّعوننا من الفجوة الحضارية التي لم يعد هناك أمل في تداركها، وأدمنوا اللجاجة والإلحاح بهذا الكلام حتى انتقل إلى الإسلاميين، وصرت تسمع كثيراً منهم ينحى باللائمة على أمّتنا ويعيّرها بما تعانيه، وصار الحديث بهذا الأسلوب، والعزف على هذا الوتر عنوان "موضوعية" المتحدث، وعلامة "وعيه بالواقع"، وآية "تجرُّده وإنصافه"، وصار هذا كله موحيًا بأننا أمة بطبيعتها "متخلّفة"،

فإذا حاولنا أن نذكّرهم بأننا أمة بانية بطبيعتها، أمة ناهضة بفطرتها، أمة قائدة بدينها، أمة رائدة برسالتها، أمة صنعت للعالم أول حضارة متكاملة، حضارة لم ترَ الدنيا مثلها، لا قبلها ولا بعدها.

إذا حاولنا أن نقول ذلك لم نجد من يسمع لنا، بل منهم من ينفرون منك نفار الأوابد، قائلين: لا تصدّعوا رؤوسنا بالماضي، ولكن حدّثونا بالواقع، وآخرون يذهبون أبعد من ذلك فيذكرون لك من مآسي وفظائع التاريخ الإسلامي ما تقشعرُّ لهوله الأبدان، حتى يصير ما تحكيه من حضارة وإنجازات مغمورًا في بحر هذه المآسي والظلمات التي شنَّعوا لك بها.

مع أن لدى الآخرين، وفي تاريخهم، بل في واقعهم الآن من الفظائع والشنائع ما لو وقع قطرة منه في بحر تاريخنا لنجّسته.

- فأمّتنا لم تتاجر في الأفيون، ولم تشعل حرب الأفيون لتفتح الأسواق أمام تجارة الأفيون، وترغم الناس على تعاطيه بالحديد والنار.
- وأمّتنا لم تفرّغ قارة بأكملها من سكانها كي تأخذ أرضها ومزارعها.. أمتنا لم تقتل الهنود الحمر بأخسّ الوسائل وأحقرها وأبشعها؛ بنشر الأمراض القاتلة والأوبئة الفتاكة بينهم عن طريق الملابس

والأغطية الملوَّثة بالجراثيم!!

- أمّتنا لم تخطف الأفارقة الأحـــرار من مدنهم وقراهم؛ لتتخذهم عبيدًا يفلحون لهم الأرض التي فرّغوها بإبادة أهلها، "وعـامة مثقفينا يقولون: إن أوروبا هي التي حرَّرت الرقيق".
- أمتنا لم تحرق المحـاصيل من الحبوب والفواكه، حتى تحـافظ على أسعارها.
- أمتنا لم تقتل الأبقـار الزائدة عن الحـاجـة؛ تخلصًا من بُحيرة الحليـب وجبل الزبد الزائد عن حاجتهم! (كان ذلك في سـنة 1984م وهو عام المجـاعة والجفاف في إفريقيا، وقد تنـاقلت وكالات الأنباء ذلك دون أي حياء أو خجل).
- وأما عن السماحة والتسـامح، وحقوق الإنسان، والتعـايش مع الآخر، إلى آخر هذه "المسكوكات" التي ملأوا بهـا أفواه مثقفينا، فيكفي أن نضع أمام القارئ الكريم هذه الوثيقة، وهي عبـارة عن مجموعة القوانين التي فُرضت على المسـلمين الذين كانوا في هذه البلاد الأوروبية قبل دخول العثمانيين إليهـا، وقارن بين ما رأيته قبلاً من سـماحة العثمانيين، التي وضعنـا بين يديك شهادة المؤرّخين الأوروبيين أنفسهم بهـا، اقرأ هذه القوانين وتأمَّل، وأعرف البَوْن الشاسع بيننا وبينهم.

الوثيقة:

1. جاء في مرسوم أصدره الملك "أندريا الثاني" بتاريخ 20/ 8/ 1233م: "يحرم على المسلمين جميعًا تولي أية وظيفة من وظائف الدولة".

2. وبلغت الاستهانة بالمسلمين ذروتها حين صدر مرسوم في عهد كارل الأول سنة 1341م جاء فيه: "على جميع الرعايا الذين لم يعتنقوا المسيحية بعدُ، أما أن يُعمّدوا وفقًا لتعاليم المسيحية، أو يغادروا البلاد".

وتصوّر المأساة في بعض مراحلها مجموعة القوانين الهنخارية التي تحمل النصوص التالية:

المادة 46- كل من رأى مسلمًا يصوم، أو يأكل على غير الطريقة المسيحية، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير، أو يغتسل قبل الصلاة، أو يؤدّي شعائر دينه، وأبلغ السلطات بذلك، يُعطى له جزء من أملاك هذا المسلم مكافأة له.

المادة 47- على كل قرية مسلمة أن تشيّد كنيسة، وأن تؤدّي لها الضرائب المقررة، وبعد الانتهاء من تشييد الكنيسة يجب أن يرحل نصف مسلمي القرية، وبذلك يعيش

النصف الآخر معنا كشركاء في العقيدة، على أن يؤدّوا الصلاة في كنيسة يسوع المسيح الربّ بطريقة لا تترك شبهة في اعتقادهم.

المادة 48. لا يُسمح للمسلم أن يزوّج ابنته رجلاً من عشيرته، وإنما يتحتّم عليه أن يزوّجها رجلا من الجماعة المسيحية.

المادة 49. إذا زار شخصٌ ما مسلمًا، أو إذا دعا مسلم شخصًا لزيارته يجب أن يأكل الضيف والمضيف معًا لحم الخنزير.

"النص اللاتيني لهذه القوانين يوجد في مجموعة القوانين المجرية - المراسيم العامة المتضمنة العهد المجري، انظر القانون الدستوري تأليف ستيفانو دي فريس، بودي ص135، 148، 157، نقلاً عن الدكتور إسماعيل باليتش: الإسلام في المجر في القرون الوسطى".

انظر وتأمل، كذلك فعلوا بنا، ثم دخل العثمانيون هذه الديار بعدُ، فكانت السماحة والعدل.

وبلغة العصر أو بالرطانة التي علّمونا إياها نقول: من الذي لا يحسن التعايش مع الآخر؟

ونسأل أيضًا: من الذي عليه أن يغيّر ثقافته، ثقافة الكراهية؟

من الذي يجب أن يغيّر خطابه الديني؟

(14)

من الذي لا يحسن التعايش مع الآخر

البعض منا لا يطيق أن ينظر في التاريخ، ولا أن يلتفت إليه، ولا يحبّ أن يذكره أحد به، فإذا تحدَّثنا عن تعصُّب الغرب، وأيَّدنا كلامنا بالوثائق، ووضعنا بين يديه نصوص القوانين التي كانت تُلزم المسلمين ببناء الكنائس، وبأكل لحم الخنزير، وتزويج بناتهم من المسيحيين، وترحيلهم عن قراهم وتركها بما فيها من بيوت ومزارع وسائر الممتلكات للمسيحيين... و... و... و...

إذا وضعنا أمامهم نصوص هذه القوانين، قالوا (في ضيق وتملل): كفى!! نحن أبناء اليوم!

ونقول لهؤلاء: يا أبناء اليوم تعالوا ننظر في الواقع المعاصر، الذي ما زالت الدماء فيه غضة طرية، والذي ما زالت الصرخات ترنّ في الآذان، ولن أتحدّث عن فلسطين، وما يجري فيها كل صباح ومساء، فذلك أكبر من كل حديث، ولكن أنظر إلى الشيشان التي تُحرَم وحدها من حق تقرير المصير دون جمهوريات البلطيق التي انعتقت من الاتحاد السوفيتي، ونعمت باستقلالها، لا لشيء إلا لأن تلك الجمهوريات غير مسلمة، والشيشان مسلمة، وانظر إلى ما جرى في تيمور الشرقية، وفصلها عن إندونيسيا باسم حقّ تقرير المصير، وأما كشمير المسلمة، فليس لها حقّ في تقرير المصير، لا لشيء إلى لأنهم مسلمون.

وتذكّرِ البوسنة وما جرى في البوسنة:

- تذكّر أن أكثر من خمسين ألفا من نساء وعذارى البوسنة قد اغتُصِبن تحت سمع العالم المتحضّر وبصره.
- ولم يقتصر الاغتصاب على عسكر الكروات وحدهم، بل -مع الأسف- شارك في ذلك جنود الأمم المتحدة، المنظمة الدولية التى ادّعت أنها أقامت منطقة آمنة للبوسنيين!

- هل نسيت أن العبث والامتهان بالنساء المسلمات وصل إلى حد زرع نطف الكلاب في أرحامهن، كي يلدن كلابا مسلمين؟
- هل نسيت مذبحة "سربنتسا" التى كان المطلوب تفريغها من سكانها المسلمين، حتى تستقيم خطوط خريطة التقسيم التي وضعها الوسيط الدولي، ومن أجل ذلك أغمضت القوات الدولية عينيها حتى قُتل من المسلمين أكثر من خمسة آلاف في عدة أيام، وبالطبع هاجر أضعافهم، حتى تكاد تخلو سربنتسا من المسلمين؟؟
- وتناقل العالم أنباء هذه المذبحة، وكأنه يتابع كأس العالم، ولكن صحفيا أمريكيا واحدًا سجَّل صيحة إدانة لهذه المجزرة قائلا: "لو كان ميكافيللي موجودا لاحمرّ وجهه خجلا"، يعني أن ميكافيللي صاحب نظَرية "الغاية تبرر الوسيلة" يخجل من أن تُرتكب مجزرة مثل هذه لتعديل خريطة التقسيم التي وضعها الوسيط الدولي!
- هل نسيت المساجد التي دُمّرت في البوسنة عمدًا وعددًا كالآتي:

1. 614 جامعًا دُمّرَت عن آخرها.

2. 534 فناء مسجد دمَّرها الصرب.

3. 80 مسجدا جامعًا دمَّرها الكروات.

4. 307 مساجد جامعة أتلِفت وفي حاجة إلى إعادة إعمار.

5. 249 مسجدًا جامعًا أتلفها الصرب.

6. 58 مسجدًا جامعًا أتلفها الكروات.

7. 557 مصلى (أي غير الجوامع) دُمِّرَت عن آخرها.

8. 14 مدرسة دينية دُمِّرَت عن آخرها.

9. 18 مدرسة أتلِفَت.

كما تعرضت المكتبات الإسلامية للتدمير والإتلاف.

وبالنظر إلى هذه الإحصاءات الدقيقة المنقولة عن الوثائق الغربية، نجد أن أكثر من 80 % من مساجد، ومدارس، ودور الكتب قد دُمِّرَت.

لقد كان من بين هذه المساجد الجوامع التي دُمِّرَت "مسجدفراديا" بمدينة "بانيالوكا"، وكان هذا المسجد يعدّ تحفة معمارية عثمانية، وهو واحد من أجمل مساجد الدنيا، ويرجع أصله إلى أكثر من 400 عام.

تماثل بوذا:

وإنما ذكرت المساجد لأُذكِّر الكرام القارئين بتلك الهزّة التي أصابت الدنيا كلها يوم أَعْلَنت حركة طالبان أنها ستقوم بنسف تمثالين منحوتين في أحد جبال أفغانستان، يومها ارتجّت اليونسكو، وتحركت الأمم المتحدة، ونشط الوسطاء والرسل، تحرّك حكام المسلمين العظام، وأوفدوا كبارعلماء الأمة إلى حكومة طالبان؛ لمحاولة إثنائها عن هدم التمثالين، لم يحدث شيء من هذا حينما بدأ هدم المساجد الأثرية بالبوسنة، وليس ذلك بعجيب، فكما أن الدم المسلم أرخص الدماء، أو لا قيمة له، كذلك الآثار الإسلامية لا قيمة لها، بل ربما يكون مطلوبا إزالتها، حتى لا تذكِّر بالإسلام وحضارته؛ فحينما يسقط بضعة نفر في خمَّارة في تل أبيب تهتزُّ الدنيا، أما عندما تُضرب المستشفيات وسيارات الإسعاف والمدراس في فلسطين، فذلك أمرٌ "مفهوم" من شارون "رجل السلام"، فكذلك لا تتساوى مساجد المسلمين مع تماثيل بوذا!

إن آلاف المرتزقة من الروس وغيرهم كانوا يحاربون في صفوف الصرب، لكن الدنيا كلها تحرّكت ضد عشرات المجاهدين الذين ذهبوا إلى البوسنة؛ لمناصرة إخوانهم المسلمين والدفاع عنهم ضد حرب

الاستئصال، تحرّكت الدنيا كلها بالآلة الإعلامية الجبّارة، وأجهزة الأمن الماكرة ضد هؤلاء المجاهدين، ووُصِموا بالإرهابيين، وبدأت ملاحقتهم حتى من الدول الإسلامية، وحُرِمُوا من الرجوع إلى بلدهم، والله أعلم بما جرى لهم.

نصف مليون مسلم من أهل البوسنة قُتِلُوا، وشُرِّد أضعافهم "هل تذكرون"؟

آلاف الناشئة من أبناء البوسنة أرْغِمُوا على ترك دينهم، وتمّ تعميدهم في البطريركية الصربية!!!

لماذا كل هذا؟

كل هذه المأساة البوسنية المروّعة كانت من أجل ألا تقوم دولة الإسلام في أوروبا.. كان هذا هدفًا واضحًا لكل متابع لتحليلات المحللين السياسيين، وتصريحات رجال الاستراتيجية، ونتائج دراسات الدارسين.

فمن الذي يكره الآخر؟؟

(15)
لا جديد تحت الشمس

في 1911/9/27م أرسلت إيطاليا إنذارًا إلى حكومة الباب العالي، بالآستانة، إلى السلطان العثماني، جاء في هذا الإنذار بالحرف الواحد: "نظرًا لإهمالكم شئون القطر الليبي؛ فإن الدولة الإيطالية تريد أن تفتح أبواب هذه البلد للمدنية الغربية.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نريد أن نحافظ على مصالح الإيطاليين في ليبيا، وإنقاذهم من الخطر المحيق بأرواحهم؛ بسبب تحريض العالم عليهم بدافع من التعصب الديني، الذي يظهره الموظفون الأتراك وضباطهم نحوهم،

كما أن الأسلحة التى أرسلتها دار الخلافة والتعزيزات العسكرية التي قامت بها تزيد قلقنا". أ.هـ بنصِّه.

كان هذا في الواقع إعلانا للحرب، وليس مجرد إنذار أو تهديد، فلم يمضِ أكثر من يومين حتى كانت الجيوش والأساطيل الإيطالية تدك الشواطئ الليبية بمدافعها الثقيلة، محاولة احتلال طرابلس، وقبل ذلك بسنين كان قد تم إعداد الأرض وتهيئتها، وحرثها لإمكان غزوها.

كان الغرب قد وعى الدرس جيدًا حينما خرج "نابليون" فتى فرنسا المبير، وسفّاحُها الجبّار، خرج "نابليونٍ" من مصر بليل، وتبعه جيشه مذموما مدحورا، ولكنهم كانوا قد تعلّموا درسًا غاليًا، عبَّر عنه كبار جنرالات "نابليون" في تقرير لهم عند مغادرة مصر: "إننا جئنا إلى مصر قبل الأوان"، ولذلك احتاج إعداد مصر وتمهيدها للاحتلال الذي جاءها سنة 1892م - احتاج هذا الإعداد أكثر من 75 سنة (ولهذا حديث آخر).

وكانت إيطاليا قد وعت الدرس جيدًا، فلم تتعجّل في الْتهام حصتها من الفريسة، وإنما أخذت تمهّد لشل حركة الفريسة قبل الانقضاض عليها، فبدأت في فتح المدارس الإيطالية، وإنشاء البنوك، وشراء

الأراضي، وإقامة المباني، وتكوين الشركات (للاستثمار والإعمار)، وفتح المتاجر لترويج المصنوعات الغربية، ووسائل الزينة والترف والرفاهية، لاعتصار أموال الشعب، وصاحب ذلك البعثات التبشيرية، بوسائلها المعهودة (التطبيب، والتعليم، والإغاثة، والأعمال الخيرية)، مع التودّد والتلطّف، وكسب الأصدقاء، وتعويدهم نمط الحياة الغربية، وكان في قمة الإعداد وذروته أن صار للطليان عملاء في بلاط الخليفة، بل إن الصدر الأعظم نفسه كان سفيراً سابقًا في إيطاليا، وتم الالتفاف حوله وتزويجه بإيطالية، ولكن الذي هيّأ لهذه المكايد النجاح هو أن دار الخلافة كانت قد سقطت في يد جماعة "الاتّحاد والترقّي" الذين هم في الواقع طلائع كمال أتاتورك، فكان تهاونهم في أمر الغزو الإيطالي يشبه الخيانة المتعمدة.

البابا يبارك جيش الغزو:

وكان أبشع ما حرّك المشاعر، وأهاج الخواطر، أن الدنيا شهدت "بابا الفاتيكان" بلباسه الكهنوتي، وشارته المباركة، يقف في خشوع وإجلال أمام الجيش الإيطالي يمنحه بركاته، "مصليا من أجله"، داعيا

بـ"أن يمنحه الرب التوفيق في مهمته"، ثم قبّل البابا الصليب ووضعه على جبهة القائد، وقبّل الصليب ثانيةً وطاف به حول رأسه، ثم قبّل الصليب ثالثة وأشار به نحو الجند، ثم انحنى في خشوع انحناءة خفيفة، تحيةً للجيش، وتألّقت في عينيه دمعة مقدسة، فعلت في نفوس الجيش فعل السحر.

واندفع الجيش "المبارك" "المقدس" وفي قلبه من نار الحقد أضعاف ما في يده من نار السلاح، وكان النشيد الذي يردّده الجنود (ولعله كان تلقائيا لم يُعدّ من قِبَل أحد) كان هذا النشيد يقول:

"أماه لا تقلقي..

أماه لا تحزني..

أنا ذاهب إلى طرابلس...

فرحا مسرورا..

لأبذل دمي....

في سبيل سحق الأمة الملعونة!!

ولأحارب الديانة الإسلامية!!

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن!!

صمد الليبيون، أو بالأحرى: صمد المسلمون، أمام هذا الإعصار الصليبي الجائح، صمدوا صمود الأبطال، فعلى الرغم من أن قوة طرابلس لم تزد على خمسة آلاف، وقوة بني غازي على ألفين، على حين كانت القوات الإيطالية الصليبية، تتكون من أربعة وثلاثين ألفا من المشاة، وستة آلاف وثلاثمائة من الفرسان المزودين بالأسلحة الثقيلة، على الرغم من ذلك فقد دفعت إيطاليا ثمنا باهظا قبل أن تستقرَّ قدمها على ضواحي طرابلس، فقد أُنزِل على الشاطئ ألف ومائتا جندي إيطالي من مشاة البحرية، سقط منهم ستمائة صرعى في أول جولة من جولات المعركة، ودارت رحى الحرب، فطحنت في معاركها ما بلغ عشرين ألفا من الجيش الغازي (بين قتيل، وجريح، ومفقود، ومريض)، وعلى طريقة الوحشية الصليبية -التي عرفناها منهم في بيت المقدس- بدأت الانتقامات من المدنيين، فقُتِل نحو ثلاثة آلاف تحت التعذيب، وأُحرِقَت بيوت وهُدِّمَت على عائلات بأسرها، وذُبِحَ من ذُبِحَ من الأطفال والنساء وكل من ساقه حظّه إلى طريق الجنود المتحضّرين! وشُنِقَ حوالي ألف رجل حتى بلغ القتلى من المسلمين نحو خمسة عشر ألفا.

هذا ما ذكرته الصحف الغربية الصادرة في 28 سبتمبر 1912م أي بعد الغزو بعام واحد.

ولا تعليق.. ولكن فقط تأمّل في كلمات الإنذار الإيطالي، وفي موقف البابا تجد أن الداء قديم، وأن الذرائع هي:

1. ضرورة فتح باب للمدنية الغربية (يعني نشر الديمقراطية، وتحرير الشعوب).
2. التحذير من التحريض (تجديد الخطاب الديني).
3. الخوف من الأسلحة والتعزيزات التي أرسلتها تركيا (امتلاك أسلحة....).
4. موقف البابا (كلام برلسكوني رئيس وزراء إيطاليا، وكلام وليام بوكين وكيل وزارة الحربية الأمريكية).

وقد سجّل الشعر العربي في قصائد مطولة هذه الأحداث، فكان مما قاله الشاعر محمد عبد المطلب:

إذا وقف البابا يبارك جندكم   فمـــا كل بابـــا للمسيح مـقرِبُ
إذا كان في الإنجيل للحرب آيـة   سلوه أفي الإنجيل ليس يكـذبُ

وقال حافظ ابراهيم:

فسلوه: بارك القوم علامـــا؟ بارك المطران في أعمالهم
آمرًا يلقي على الأرض سلاما؟ أبهـذا جـاء إنجيلـهـمُ

(16)

حينما يكون إعلامنا مسلوب الذاكرة

حينما أنظر في إعلامنا -بكل وسائله- يتأكد لي أنه مسلوب الذاكرة، لا ذاكرة له، وإنما دائمًا يردِّد ما يلقى إليه، ويتكلم بما تتناقله وكالات الأنباء، وتدقُّه آلات "التركيز".

فإذا تكلَّموا عن إرهاب الإسلام، وإرهاب المسلمين، وعن المناهج الثقافية التي أفرزت هذا الإرهاب، وجد إعلامنا بكل قوته يقرع كل آلاته وراء هذا المايسترو الجبَّار، ويتبارى الجميع في العزف بكل قوته، ملتزمين حرفيًا بـ"النوتة"، يخافون الخروج عنها، حتى لا يكونوا "نشازًا".

ويتجـاوب "جوقة" المثقفين كُتّـاب صحف الـرأي، مع "جوقة" الإعلاميين، ويخشى العلماء والدعـاة أن يُتّهمـوا بالتخلف وعد معرفة "الواقع"، فيتسـابقون للحـاق بـ"الجوقة"، ويستمرُّ العزف بأفـانين ضروبٍ من النغمات، حتى يصيب الناس الدوار، وتسدّ عليهم منـافذ التفكير، فنصدّق أن المسلمين إرهابيون، وأن منهجنا -فعلا- في حاجة إلي تغيـير، وأن معاهدنا الدينية فعلا تخرِّج الإرهـابيين، مع أن الواقع يؤكد أنه ليس بين هؤلاء المتهمين بالإرهاب رجل واحد تخرَّج في كلية شرعية، أو معهد ديني.

والمايسترو (أي الآخرون) يعلمون هذا تماما، ولكن الفرصة واتتهم فليغتنموها؛ للعبث في مناهج تدريس الدين عندنا حتى تصير (إسلامًا أمريكيا) ظريفا لطيفا؛ "كنافة وقطايف وقمر الدين، وياميش، وتمر، وهريسة، وفوانيس" في رمضان، و"كعك وغريبة" في عيد الفطر، و"خراف" في عيد الأضحى، و"حلوى" في مولد النبي -صلى الله عليه وسلم- وحلاوة زمان، عروسة، وحصان "إسلام فولكلوري" يسر الناظرين، فتهوي إلينا أفئدة السياح؛ للاستمتاع بمناظرنا الظريفة، والاحتفاظ بالصورة التذكارية، ويمرحون في ديارنا في أمن وأمان، وكأنهم يتلذّذون بمشاهدة كائنات منقرضة تعيش في كهف من كهوف التاريخ.

أما الإسلام الذي ينهض بالأمة، يحيي الشعوب، ويعبّئ طاقتها، ويدعوها لريادة الدنيا، والأخذ بيد البشرية، والذي يقعد بأهله مقعد القيادة، فيجب إبعاده عن المناهج الدراسية تماما، بل ويجب التعتيم على مصادره، "وتجفيف منابعه" كما تفنّنت في ذلك دولة عربية، وصارت رائدة في هذا المجال، وتصدِّر برامج تجفيف الينابيع، إلى من يريدها!

إن الغرب لا يعنى بتعديل المناهج، وتغيير الخطاب الديني غير هذا، إن الغرب يعرف تمامًا ماذا يريد، ويعرف تماما ما عندنا، ويكفي أن نشير إلى الإحصاءات الآتية:

- عدد الباحثين في شئون العالم الإسلامي في الجامعات الأمريكية كان في سنة 1966م 363 باحثًا، وفي سنة 1986م أصبح 670 باحثًا أي يتضاعف كل عشرين سنة، أي أنه الآن 1340 باحثًا.
- أما في مراكز الدراسات المتخصصة فكان في سنة 1977م 823 باحثًا، وسنة 1986م 1582 باحثًا، ومعنى ذلك أن العدد الآن يصل إلى 4000.
- أما الدوريات المتخصصة فتصل إلى 3000 دورية باللغة الإنجليزية وحدها.

ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم إذ يقول:

كحّلها الأطماع فيكم بسهد   إن في الغرب أعينا راصدات

كنا نتمنى من إعلامنا أن يقلب السحر على الساحر، وبدلاً من أن يقتصر على إعادة ضخِّ ما يوجهونه إلينا، ويكتفي بأن يكون بوقًا، أو مجرد "كورس"، كنا نتمنَّى أن يستخرج إعلامنا من ذاكرته ما فعله الغرب بنا -وما أفظع ما فعل- قديما وحديثًا، وما قاله فينا على لسان علمائه وخبرائه وأدبائه، وحكامه، وقساوسته وحاخاماته، وما أسوأ ما قالوا، كان على إعلامنا أن يذكرهم بما فعلوه في البوسنة والهرسك، وما كان منهم في كوسوفو، وعن جرائمهم في ألبانيا، وعن أفاعيلهم في جنوب السودان...

كان على إعلامنا أن يُخرِج من ذاكرته ما يواجههم به، ويقول لهم:

أنتم الذين تكرهون الآخر! أنتم الذين يجب أن تتعلّموا كيف تتعايشون مع الآخر.

كان على إعلامنا أن يجيبهم بما قالوه -وما زالوا يقولونه- فينا، ويقول لهم: "أنتم الذين يجب عليكم أن تغيِّروا خطابكم الديني، بل ويجب عليكم أن تغيِّروا خطابكم السياسي، والأدبي".

كنت أتمنّى أنت تخرج صحف العالم الإسلامي كلها غداة قال برلسكوني: "إن الحضارة الإسلامية حضارة منحطّة" كنت أتمنى أنت تخرج صحفنا كلها تحت عنوان واحد: "نحن لم نتاجر في الأفيون، ولم نُرغم الشعوب على تعاطيه بالحديد والنار".

كنت أتمنى أن تخرج صحفنا غداة قال وليام بوكين وكيل وزارة الحربية الأمريكية: "إن الإسلام دين وثني، وإن المسلمين أشرار يعبدون صنما، وإن ربي أكبر من ربهم"، كنا نتمنّى أن تخرج صحفنا بعنوان واحد: "إن ديننا لا يسمح لنا باستئصال الهنود الحمر، وحرق المحاصيل الزراعية من الحبوب والفواكه حتى الآن".

واعذروني هذه معانٍ تتداعى من ذاكرة شاخت، فليس عندي "أرشيف"، ولا هو من عملي.

إن إعلامنا الذي يملك الذاكرة التي تحدّثنا عن نجوم الكرة من بوشكاش، وبيليه الجوهرة السوداء، ومارادونا العظيم... إن إعلامنا هذا لا شكّ قادر على أن يواجه هذه الحرب الشرسة، لو غيّر استراتيجيته من مجرّد المتلقّي إلى الإعلام المقاوم ثم المهاجم، وسيجد في ذاكرته أسلحة قاطعة تجعلنا نكسب المعركة من أول جولة، فنحن والله أهل سلام ولا نريد غير السلام.

(17)

هوامش على تاريخ الحجاج (1 - 3)

هناك شخصيات تكون على موعد مع القدر، تهيئها الأقدار لأداء أعمال حاسمة وللقيام بجهود خارقة تترك أثرًا يملأ سمع الدنيا إلى الأبد، من هؤلاء الحجاج بن يوسف الثقفي -رحمه الله- ومثل هؤلاء يختلف الناس في تقييمهم، وقد اختلف الناس في الحجاج اختلافًا عظيمًا، فأعداؤه -وهم كثر- قالوا فيه كل مَنقصة، ووصموه بكل عيب، وبالغ من بالغ، حتى اخترعوا غرائب وعجائب -تصل إلى حد الخرافة- في نشأته ومولده، ولا شك أنه كان بالحجاج قسوة، وطيش، يجعله يميل

إلى توقيع أقسى العقوبة وأبلغها، ولا يميل قدر شعرة إلى اللين.

هذا القدر متّفق عليه بين كل من تكلم عنه من مادح وقادح.

ولكن

هناك عدة أمور أدت إلى هذه الصورة المستبشعة عن الحجاج، وهي:

1. المبالغة: وذلك أمر فطري، فما عُرِف أحد بصفة، واشتهر بها حتى رويت عنه حكايات تبالغ في هذه الصفة، حتى تخرج بها عن حد المعقول، ولا يكون ذلك فيمن عُرِف بصفة مذمومة فقط، بل من عُرِف بصفة ممدوحة أيضا، فمن عُرِف بصفة الكلام أو الشجاعة، أو التقوى والصلاح، ونحوه تجد في تاريخه حكايات، وأخبارًا من المبالغات تصل إلى حد اختراع وقائع لا يقبلها العقل.

2. إن هذه المبالغات تكون أكثر شيوعا وذيوعًا من الحقائق: وذلك أيضا أمر فطري؛ فالناس مولعون برواية العجائب والغرائب، نبَّه إلى ذلك ابن خلدون، وحذَّر منه، نصَّ على ذلك في مقدمته؛ وذلك لأن رواية الأحداث والوقائع المعقولة والممكنة لا تهزّ السامع، ولا يلفت الناس إلى من

يحكي، فاحتاج الإخباريون إلى المبالغة؛ قصدًا للإثارة، وجلبًا للسامعين.

3. وما عرف به الحجاج واستقر عنه من القسوة والبطش، والبُعد عن اللين، جعل لهذه الحكايات قبولا؛ "فالشيء من معدنه لا يُستغرب"، ولذلك راجت المبالغات حتى عند علماء كرام، وأئمة عظام، من شأنهم أن ينقدوا الأخبار، وينظروا في سندها ومتنها.

4. ساعد أيضا على قبول هذه الأخبار ما هو مركوز على طبع البشر من الكراهية والبغض للقسوة والبطش، فلم يلتفتوا لنقض هذه الأخبار، بل قبلوها على علاتها؛ حيث تشبع عاطفتهم، وتُرضي مشاعرهم تجاه الحجاج.

5. كثرة أعداء الحجاج: فما من أحد -فيما أعتقد- حارب كل الطوائف والفرق مثلما فعل الحجاج؛ لقد حارب الحجاج -من أجل وحدة الأمة- كل الأطياف السياسية (بلغة العصر): حارب الحجاج الخوارج، وحارب السبئيين، وحارب الباطنية، وحارب الزبيريين، وحارب الطامحين الذين رأَوْا الفتن تنشب هنا وهناك، فسَوّلت لهم أنفسهم أن يطاردوا الخلافة، ولو

أدّى ذلك إلى تمزيق الأمة، ما داموا ينالون حكم جزءٍ منها.

6. من أجل هذه العداوة الشاملة للحجاج جاءت الأخبار والمبالغات، بل والافتراءات ضدّه من كل الإخباريين، فلا تجد إخباريا أو مؤرّخا إلا وله ثأر عند الحجاج.

7. وظل هذا الطوفان من أخبار الحجاج يزداد ويربو حتى حجب كل فضائل الحجاج ومآثره، سواء فضائله الشخصية، أو أعماله ومآثره في غير مجال الحرب، وعن هذا وجد إمامًا جليلاً مثل الإمام الذهبي يقول في ترجمته: "وله حسناتٌ ولكنها مغمورة في بحر ذنوبه".

ولكن مع كل هذا: يبقى عِلم أسلافنا الأوّلين أفضل وأقوم، فهو بين أيدينا بسنده، نعرف روايته، ونعرف الذين دوّنوه، فنستطيع -بشيء من الجهد- أن نصل -إلى حد كبير- إلى التمييز بين الصحيح والسقيم من الروايات، ونتحفظ على أهواء المؤرخين وانحيازهم.

ولكن الذي لا علاج له أن يصل قلم أديب من أبناء عصرنا إلى أن يفسّر أعمال الحجاج، وقسوته مع ابن الزبير بأنه كان يسعى لمجد نفسه، وليرفع خسيسة أصله، ولينجوَ من وضاعته، حتى يصير جديرًا بإمارة من إمارات الدولة.

يفسّر عمل الحجاج بهذا التفسير، فيتدسّس إلى نفسه، ويصل إلى طويته، ويدخل إلى قلبه ويكشف نيّته، ويصوّره بهذا السوء، ويعرضه على عامة الناس مجسَّدًا في شخص ممثل قدير، يؤكد هذه المعاني بملامح وجهه، وحركة يديه ونظرات عينيه؛ فيرى الناس خُبث الحجاج مجسّدًا مشهودًا ناطقًا، لا يعنيه في سبيل الحصول على إمارة العراق أن يقتل ابن الزبير ومن معه، وأن يرمي البيت الحرام بالمنجنيق! ومتى حدث هذا؟ في فجر الإسلام!! في خير القرون، في عصر الصحابة والتابعين، إذا كنّا قد فعلنا بأنفسنا هذا مبكرًا، فلا حرج على "بوش" أن يفعله الآن ومن أجل إمارة العراق أيضا.. يا للمُفَارقة!

التاريخ يقول غير هذا

للحديث صلة.

(18)

هوامش على تاريخ الحجاج (2-3)

التاريخ يقول غير هذا

أعني أن التاريخ الصحيح نقلاً وعقلاً لا يقول: إن الحجاج كان خبيث النية سيئ الطوية، قتل ابن الزبير ومن معه، وضرب الكعبة بالمنجنيق؛ من أجل أن ينال ولاية العراق.

نعم لا يقول بذلك العقل ولا النقل، بل واقع الأمر أن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه وعن والديه- دعا لنفسه الخلافة، فبايعه من بايع، وقعد عنه من قعد، وعارضه وقاومه عبد الملك بن مروان،

الذي استتبَّ له الأمر في عامَّة أرجاء الدولة الإسلامية، فكان لا بد أن يقاتل ابن الزبير بصفته خارجا على خليفة المسلمين.

- ولسنا هنا لتقييم موقف كل من عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، ووزْن وتقدير حُجَج كل واحد منهما؛ لنبين أيهما كان أحق بالخلافة.
- وإن كان لا بد من أن تبادر -قبل أن يزايد علينا أحد- فنقول: إن فضل عبد الله بن الزبير لا يُجحد، ومنزلته لا تُنكر، فهو أول مولود للمسلمين في دار الهجرة، وقد فرح به المسلمون جميعا، حيث قد أرجف اليهود بأنهم قد سحروا المسلمين حتى لا يُولَد لهم ولد، وأبوه هو الزبير بن العوام أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وأحد الستَّة أصحاب الشورى، وحواريُّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأحد أبطال الإسلام، وكانت آثار السيوف في جسده شاهدة ناطقة، ببلائه أصدق البلاء في سبيل الله.. ذاك أبوه.

وأمه أسماء ذات النطاقَيْن، حاملة الزاد يوم الهجرة والغار، وجدّه أبو بكر الصديق، وخالته عائشة أم المؤمنين الصدِّيقة بنت الصديق، ثم هو من العُبّاد الزهّاد، المجاهدين الأبرار، لا أحد يجادل في فضل ابن الزبير ومنزلته، هذه قضية مفروغ منها.

ولكن

هل كان عبد الملك محقًّا في قتال ابن الزبير؟

أعود فأقول: لسنـــا هنا الآن -ولا نملك- الإجــابة القــاطعة لهذا السؤال.

ولكن الذي نقطع به أن من قاتل ابن الزبير كان على أسوأ حــالاته مأجورًا أجرًا واحدًا، بمعنى أنه قاتل بنيَّة المحــافظة على جمع المسلمين؛ امتثالاً لأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حديثه الصحيح: "من أتاكم وأمركم جمع يريد أن يفرِّق كلمتكم، ويشقَّ عصــاكم، فاضربوه بالسيف كائنا من كان"، فالذين قاتلوا ابن الزبير قاتلوه بتأويل سائغ، وبنيَّـــة صحيحة، فإنْ صدق اجتهادهم فلهم أجران، وإن أخطأوا، فلهم أجر واحد، هذا عن أصل القتال، أما ما حدث من تجاوز وإسراف، فله حكم آخر.

عمرو بن الزبير يقاتل أخاه

ويشهد لما قلناه من أن القضية كانت محتملة، وفيهــا مجال اجتهــاد، أن عمرو بن الزبير قــاد أول جيش خرج من المدينة؛ لقتــال أخيه عبد الله بن الزبير.

وذلك أنــه عندما نجم أول أمر عبد الله بن الزبير بمكة، كان عمرو بن ســعيد بن العاص واليًا على المدينة، فقال لعمرو بن الزبير -ويبدو أنه كان من خاصَّته- مَنْ رجلٌ نوجِّهه إلى قتال أخيك؟ فقال عمرو بن الزبير: إنك لن توجِّه إليه رجلاً أنكأ إليه مني، فوجِّهني إليه.

فخرج له من أهل الديوان عشرات، وخرج من موالي أهل المدينة ناس كثير... فعسكر بظاهر المدينة يتهيَّأ للرحيل، فجاء مروان بن عبد الحكم إلى عمرو بن سعيد، فقــال: "لا تغزُ مكة، واتَّق الله، ولا تحلَّ حُرْمة الحَــرَم، وخلّوا ابن الزبير، فقد كبر... والله لئن لم تقتلوه ليموتنَّ غدًا أو بعد غد".

فقال عمرو بن الزبير: "والله لنقتلنَّه، ونغزُوَنّه في جوف الكعبة رغم أنف من رغم"، فأرسل إلى أخيه عبد الله: "برّ يمين الخليفة، واجعل في عنقك جامعة، حتى لا يضرب النــاس بعضهم بعضــا، واتَّقِ الله؛ فإنك في بلد الله الحرام".

تأمَّل!! عمرو بن الزبير يُقــاتل أخــاه!!! ويقول اتَّق الله ولا تُفرّق بين المســلمين! ويقول لعمرو بن سعيد بن العــاص الأموي: "لن تجد أنــكأ له مني"!! ويقول لمروان حينما خوَّفه من القتــال في الحرم: "ولو في جوف الكعبة"، فالذين اتّهموا الحجاج بفساد نيّته، وأنه قــاتل ابن

الزبير، واستحلَّ الحَرَم من أجل أن يكون أميراً على العراق، هل يستطيع هؤلاء أن يقولوا ذلك عن عمرو بن الزبير وقد فعل نفس ما فعله الحجاج؟!

أجزم بأنهم لا يمكن أن يقولوا ذلك، لا تورّعاً ولا عن اتهام عمرو بن الزبير في نيّته فقط، بل لدليل قاطع لا يجدون له دافعاً، فقد ثبُتَ أنه حين حضرت الصلاة قبل أن ينشب القتال بين ابني الزبير، حينما حضرت الصلاة تقدَّم عمرو ابن الزبير فأمَّ الناس، وصلى وراءه أخوه عبد الله بن الزبير!

فهل كان عمرو بن الزبير فاسد النية، يتوصَّل بالقتال في الحَرَم إلى الحُظوة والمنزلة عند بني أمية؟

إن قلتم ذلك، فقد اتّهمتم عبد الله بن الزبير أيضاً، فكيف يصلّي وراء فاسد النية الذي يبيع دينه بدنياه؟ كيف يصلي خلف من يقول: سنقاتله ولو في جوف الكعبة؟!

قلت: لسنا هنا (الآن) للفصل بين ابن الزبير وعبد الملك في استحقاق الخلافة، ولا في الحكم على أعمال الحجاج وقتله وقتاله، ولكن كل همنا أولاً براءة الحجاج من فساد النية والاستهانة بحَرَم الله.

(19)

هوامش على تاريخ الحجاج (3-3)

لم يَضْرب الكعبة بالمنجنيق

صار كل من يكتب في التاريخ في عصرنا هذا يذكر أن الحجاج ضرب الكعبة بالمنجنيق، ويخرِّج هذا القول مخرج الخبر الثابت الذي لا شكٍّ فيه، ومن هنا لا يكلف نفسه بمناقشة الخبر، والنظر في صِحَّته أو سَقَمه، بل صار هناك منهج عجيب، يجعل شيوع الخبر على ألسنة العامة دليلا على صحته، وعلى هذا المنهج جرى معظم الأدباء حينما يتناولون التاريخ بأسلوب القصّة أو المسرحيّة، ولذا رأينا قضية

ضرب الكعبة بالمنجنيق -لبشاعتها- مجالاً للتصوير بأقلام الأدباء، والتلوين ببراعتهم وفنِّهم، ويعرض هذا بأبلغ صورة، وأفظع هيئة على المشاهدين، فتقشعرُّ له الأبدان، وتغلي النفوس، ويبوء الحجاج بما يستحقُّه بسبب هذا الجرم الشائن، وهو بالقطع بريء من هذا.

شيخ الإسلام ينفي هذا:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن قال إن أحدًا من خلْق الله قد رمى الكعبة بمنجنيق أو عذرة فقد كذب، فإن هذا لم يكن في الجاهلية ولا في الإسلام، والذين لا يحترمون الكعبة كأصحاب الفيل والقرامطة لم يفعلوا هذا، فكيف بالمسلمين الذين يعظِّمون الكعبة؟!

ولما قُتِلَ ابن الزبير دخلوا بعد هذا إلى المسجد الحرام، فطافوا بالكعبة، وحجّ بالناس الحجّاج بن يوسف ذلك العام، وأمره عبد الملك ألا يخالف عبد الله بن عمر في أمر الحجّ، فلو كان قصدهم بالكعبة شرًا، لفعلوا بعدُ". انتهى كلام شيخ الإسلام بنصِّه.

وهذا هو الكلام الذي يقتضيه عقل العقلاء المنصفين، ولا يمليه تحامل المتحاملين، وبغضاء المبغضين.

فلو قَصَد الحجاج الكعبة بالمنجنيق، وضربها من هذا الارتفاع الشاهق، من فوق جبل أبي قبيس، فهل كان يبقى حجر فوق حجر -والعياذ بالله- وهل يقبل العقل أن مسلمًا يصلّي الخمس مستقبل القبلة يفعل هذا؟ ولو فرضنا جدلاً أن الحجاج انسلخ من الدين -حاشاه- وأراد بالكعبة شرًا، فهل كان جنوده، وأركان حربه كلهم مثله؟ أيقبل عقل عاقل أن يرتدّ جيش الحجاج بكامله عن الإسلام، فلا يوجد فيهم من يصيح في وجه الحجاج: ويلك يا عدو الله؟ أم تراهم كانوا خانعين خاضعين أذلاء يضربون الكعبة التي يعظّمونها ويصلّون إليها ولا يستطيعون أن يقولوا للحجاج: "لا"؟ أيصحُّ هذا في عقل عاقل؟؟

سيقول قائل: ولكن المنجنيق قد نُصِب، والضربُ قد حدث، فهل تنكرون ذلك؟

ونقول: فرق كبير وبونٌ شائع بين أن يقال: نَصَب المنجنيق لضرب ابن الزبير، وأن يقال: نَصَب المنجنيق لضرب الكعبة.. فرق كبير، وبون شاسع بين أن يُقال: ضرب الحجاجُ معسكرَ ابن الزبير بالمنجنيق، وأن يقال: ضرب الحجاجُ الكعبةَ بالمنجنيق.

وشاهدُ من مأسي عصرنا

في فجر اليوم الأول من المحرم سنة 1400هـ فوجئ المصلُّون بجماعة تبايع شخصا بين الملتزم والحجر الأسود على أنه المهديّ المنتظر، ورفعوا السلاح، وغُلّقت أبواب الحرم، ودوّى الرصاص في أرجائه، ونادى هؤلاء المعتصمون بالحرم كل الحكام والمسؤلين بالسمع والطاعة والبيعة لهذا "المهدي"! وكان ما كان.

وكان ما كان من حصارِ هؤلاء في داخل الحَرَم، واستخدام أفنانين وضروب من الأسلحة لفكّ أسر الرهائن من المصلّين والطائفين الذين أغلقوا عليهم أبواب الحرم أولاً، ثم لتطهير الحرم منهم ثانيًا.

كان ما كان مما تقشعر له الأبدان لذكره!! فهل يقول قائل إن الحكومة قصفت الحرم بالقنابل، وأحرقته بالغازات، وهدّمته بالدبابات؟ ؟

هذه حادثة عشناها، ورأيناها، وأحاط الجميع بها خبرًا، وهي تشبه واقعة ابن الزبير تمامًا، فكلاهما لاذ بالحرم، وكلاهما لقي مقاومة من السلطان حتى استسلم، وفي الحين كانت دماء وقتلى في داخل الحرم، فلماذا موقف الحجاج وحده يفسَّر بأنه عدوان على الكعبة بالمنجنيق؟ ؟ ولماذا هذه البشاعة في تصوير موقف الحجاج؟ واتهامه بكائنة لا تكون من مسلم يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ هل

أدْمَنَّا جَلْد ماضينا؟ هل صار تشويه تاريخنا متعة لنا، وملهاة نلتهي بها عن واقعنا البئيس؟

ثم هل من حق من يتناول التاريخ في عمل أدبي أن يخترع أحداثاً لم تكن؟؟

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، والحمد لله رب العالمين.

كتبه أبو محمود

عبد العظيم محمود الديب